أحمد الفخراني
المشّاء العظيم
رواية
دار الشروق

أحمد الفخراني

المشاء العظيم

رواية

الطبعة الأولى 2023

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

تصميم الغلاف: هاني صالح

ISBN 9789770938508

دار الشروق

«ولا يزالُ يسير منذ موته دون توقف، وهذا هو الثمنُ الذي يؤديه مكفرًا مَن يجترئ على الكثير».

الكوميديا الإلهية.. المطهر

مُقدمة المُحقق

تلك هي مسودة الرواية السابعة والأخيرة للروائي محمد الأعور، الذي مثَّلَ انتحارُه حدثًا هز عالم الأدب، ربما أكثر من أعماله نفسها، وقد كتبها في ذروة اضطرابه واستسلامه لما أسماه بهمس الجنون، حتى إن آخر كلماته كانت وصفًا للحظاته الأخيرة قبل أن يتخذ قراره بإنهاء حياته، وهو قرار على مأساويته، قد حقق له ما لم تُحققه موهبته: الخلود.

تحتوي الرواية على هواجسه واعترافاته التي لا يمكننا أن نميز فيها الحقيقة من الأوهام، وقد تركها لنا في شكل مسودة غير مكتملة، وليس أدل على ذلك من كونها مقسمة إلى كتابين منفصلين متصلين، يمكن الاستغناء عن أحدهما بالآخر، وقراءتهما معًا في آنٍ.

المثير أن الأعور نسبَ الكتاب الأول «همس الجنون» إلى أستاذه فرج الكفراوي، ونسبَ الكتاب الثاني: «المسخ»، إلى ما أسماه «تأليف جماعي من جوقة الذاكرة وكورال النسيان»، وقد فهمنا من النص أن المقصود بهذا التعبير، هو التأليف عبر تقنية الذكاء الاصطناعي.

ورغم أن الكفراوي، وهو روائي مَنسيّ صدرت له بعض الأعمال الجيدة التي لم تصمد في الذاكرة، ماتَ قبل كتابة هذا النص، ورغم أن تقنية الذكاء الاصطناعي ما زالت في بداياتها، إلا أننا بعد القراءة، وتبين الكثير من الحقائق التي أوردها الأعور في كتابه، لا يمكننا الجزم إن كان الأعور كاذبًا أم صادقًا، وأن الكتابين ليسا من تأليفه فعلا، بل من تأليف شبح وحاسوب.

كما لا يمكننا الجزم بطريقة موته وإن كانت قد حدثت عبر طلقة مُسدس في الرأس أم لا، فقد أشاعت عائلة الأعور، أنه لم ينتحر، بل قرر ذات يوم أن يتسلق جبلا في سانت كاترين، فالتهمته عاصفة ثلجية، ولم يعد، لكن أتباعه ومريديه الذين تشكلوا عقب نبأ رحيله الفاجع، يؤمنون أنه لم يمُت، بل سيعود ذات يوم كي يملأ أرض الرواية عقلا بعد أن مُلئت جنونًا.

إلى هذا الحد شاعت صورة الأعور في أذهان مريديه الذين أعادوا تأليفه كرواية لم يكتبها، حتى إنه صار من الصعب أن نوقن، ولا حتى من خلال أعماله المنشورة التي لم تصمد طويلًا في الذاكرة، إن كان روائيًّا حقيقيًّا أم مُتخيلا أم هجينًا.

أحمد الفخراني

27 / 1 / 2202

الكتاب الأول

همس الجنون

تأليف فرج الكفراوي

(1)

هبَّت رياح عاصفة في أحلامه، أطاحت بكل ما في طريقها وخلَّفت آلاف المذعورين، اقتلعت الوجوه الزائفة وكشفت عن حقيقتها الوحشية، العفنة والتافهة. جلس هادئًا وسط الخراب على كرسي خشبي كأنه العرش، ممسكًا بزهرة من نار، كانت بين يديه بردا وسلاما، حدقت العاصفة بعينيه، زأرت ساخطة، لم يُشح بنظره أو يرمش له جفن، لا عن تحدٍّ، بل لأن غضبها بدا له مفهوما، فالوسيلة الوحيدة أمامها كي تتمكن من فهم العالم والانخراط فيه هي أن تقلب كل شيء رأسًا على عقب، أن تجتث كل راسخ من جذوره، لتعيد بنفسها كتابة قوانين اللعبة وخطوط الحكاية. أمام رباطة جأشه، انحنت له العاصفة صاغرة، انكمشت كلهيب خافت لشمعة، أمسك طرفيه بإصبعيه وأسكنه قلبه.

استيقظ على رنين الهاتف، اتصالات ما بعد منتصف الليل لا تحمل إلا أخبارا سيئة، تعجب أن أول ما خطر له كان نبأ وفاة أستاذه فرج الكفراوي، وقد ساقه إليه رسول من الماضي لا يعرف أن السبل بينهما قد انقطعت، ثم تذكر أن ليس بإمكانه أن يموت مرتين.

كان رأسه مثقلا بسلاسل غليظة، ويدوي بقلبه زئير مهتاج لعاصفة،

كجنيٍّ حبيس قمقم يكاد أن يخلع صدره من مكانه. تحسس باطن يده التي تطن بألم خفيف، واستشعر بأنفه رائحة جلد محروق، علم أنه من أثر إمساكه بزهرة النار، تجاهله كشأن كل ما صار يجره معه من أحلامه إلى يقظته الهشة.

منذ أربعين يوما وهو لا يحظى إلا بغفوات نوم قصيرة أشبه بالتعذيب، يطارده خلالها حشد من الرؤى والموتى وأشباح غامضة تخلط بين الآمال والوعيد، رغم انضباطه الصارم بموعد الذهاب إلى الفراش. جرب المنومات مرة أو مرتين، ثم خشي أن يقع فريسة لإدمانها، فتخلى عنها سريعا، لن يسمح لشيء أن يكون له اليد العليا على عقله.

أضاء النور ثم اتجه إلى طاولة التسريحة حيث اعتاد أن يضع الهاتف بمسافة بعيدة اتقاء لخطر موجاته التي قد تسبب سرطان الدماغ، وحدهم الحمقى والروائيون السيئون لحيواتهم أو لما يألفونه من كتب، يهملون تفاصيل صغيرة كتلك.

عندما رأى اسم المتصل أدرك أنه يحمل خبرا سعيدا، حبس هيجان مشاعره وبدلا من الرد عليه أشعل السيجارة التي لا يسمح لنفسه بها إلا كل ساعة ولا يقربها أبدًا إذا ما قام في منتصف نومه، امتص دخانها بعمق وتلذُّذ.

توقف الرنين، استكمل سيجارته بهدوء ليروض بها اللهفة، يعرف أنه سيعاود الاتصال، سيتعمد أن يجيبه بصوت مغبش بالنوم واللامبالاة، ربما مع لمسة انزعاج من مهاتفته في وقت كهذا، رغم أنه

يعرف حجم الخبر الذي يحمله الروائي سمير عبد الرءوف ولا يطيق صبرا حتى الصباح لإخباره به.

كَرِهان مضمون الربح، رن الهاتف، أجاب كما خطط، أفادته رحلة التمثيل في بعض مسرحيات الهواة، والتي لم تكن إلا نزوة عابرة اشتهى تقليدها، ضغط المشاعر التي أراد إيصالها دون زيادة أو نقصان، داخل كلمة واحدة: «آلو؟».

«مبروك.. بعد سبعة أيام سيكون الروائي محمد الأعور أصغر مَن تلقى جائزة الدولة التقديرية للآداب».

«هل أنت متأكد؟».

«مَصادري لا تخيب».

«بشَّرك الله».

«تستحق وأكثر».

«لم يعد بإمكاني رد ديونك».

«بإمكانك.. لكنك لن تفعل».

قالها الروائي سمير عبد الرءوف بنبرة بين الخلاعة والأسى، تجاهلها فورا، شكره مرة أخرى، لكن سمير باغته بطلب آخر:

«ما رأيك في احتفال صغير؟».

«متى؟».

«الآن.. في أي بار».

«أنام مبكرا، فلنجعلها غدا، ربما أقابلك هناك في الخامسة مساء».

«ألا أستحق على الأقل أن أشاركك لحظة كتلك، هل تجد صديقا أجدر مني لتحتفل معه؟ شخص أحبك بصدق ودون أن يرغب في الحصول على شيء».

اعتذر مُجددًا، لكن سمير ألحَّ ثم لجأ لسلاحه الأشهر، صوت يحمل كل خذلان العالم مع تذلُّل خانع، يتبدل فورا إلى فخر فظٍّ وثقة رخوة متلاعبة ما أن يحصل على مراده.

نجح أخيرا في أن يُنهي الاتصال بلطف بعد مراوغات عدة مرهقة كاظمًا غيظه بأعجوبة، فقد ألحَّ سمير على تذكيره عبر تلميحات فجَّة بما قدمه من أجله.

أي ادعاء كاذب. يعلم كلاهما أن لا دخل له بفوزه بجائزة لم ينلها هو نفسه، لو استطاع لمنعه من الحصول عليها، مهما بلغت درجة محبته له ورغم أنه سانده منذ بداية رحلته الطويلة عندما أنكره الجميع، وفتح له الكثير من الأبواب المغلقة فاختصر له سنوات كان سيقضيها تائها داخل الفم الفاغر للنسيان، لكن مساندة الكتاب تقف عند حدود واضحة، أن تكون خلفه ولو بخطوة لا أمامه، تابعًا ضمن حلف واسع لا متبوعًا على رأس حلف.

أطفأ سيجارته الثانية دون أن يكملها، عاد إلى فراشه كي لا يخرق روتينه الاعتيادي، هو أدرى الناس بالنقمة المتنكرة ببراءة النعمة والفخاخ التي يخلفها الفرح، سواء التي أعدها له الآخرون ونجا منها أو تلك التي أعدها بنفسه، طريقه أطول من جائزة محلية، وأحلامه

بلا حدود، صغر سنه هو ما يمنح الجائزة قيمتها الكبرى، ست روايات وبصدد الشروع في كتابة السابعة، أكثر من خمسين طبعة. تُرجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة، خطوة واسعة تفصله عن أقرانه إلى الجائزة التي لم ينلها سوى كاتب عربي وحيد.

فوزه بجائزة الدولة التقديرية في سن السابعة والأربعين، لم يكن متروكًا للصدفة، فقد تحقق وفق جدول زمني محسوب بدقة أنجز فيه كل ما تخيله في بداية رحلته وكل صورة شبحية للمستقبل عضَّ عليها عينيه كي لا تفلت، رغم التعثرات والعقبات ومفاجآت الزمن التي لا تنتهي، رغم الكراهية والحسد والضغينة والإنكار.

رأسه تسكنه نشوة منقوصة «فلكل إنجاز لا بد من شاهد» قال لنفسه. تحسس المكان الشاغر لزوجته على الفراش، والتي تنام في غرفة منفصلة منذ ثلاثة أعوام. فكر في أن يذهب إليها ويوقظها كي ينطق بالجملة الساذجة كما تخيلها في رأسه لسنوات طويلة: لقد فزت، تمامًا فعل «والتر وايت» مع زوجته بمسلسل «Breaking Bad»، عندما أعلن انتصاره على أشرس أعدائه، لقد أحبا هذا المسلسل معًا ورأى نفسه في بطله الذي ما إن أطلق العنان لقوته حتى أصبح أخطر من كل مَن أنكروه، هي مَن لفتت نظره إلى أنه في كل مرة كان يضطر فيها البطل إلى قتل عدو أو إزاحة منافس، كان شيء من عادات ضحيته وقوى روحه ينتقل إليه. كانت كريمة حينها شريكة لا خصمًا.

تراجع عن فكرة إيقاظها. اتجه إلى غرفة ابنتيه المراهقتين، لا ينامان إلا بعد الفجر، كانتا مضطجعتين على سريريهما، بعينين

غائصتين في شاشتَي الهاتف بأصابع لا تكف عن التكتكة السريعة، دخل فقبَّلهما كطفلتين، يعلم أنهما ترغبان في أن يغادر الغرفة فورًا.

قرر أن يثير حماسهما أولا، فقال: كيف ستشعران لو فاز والدكما بجائزة الدولة التقديرية؟

رمقته الكبرى بنظرة ضجر، ثم أشاحت بوجهها لتدفنه في الهاتف مع شابٍّ ما كل ما يعرفه عنه هو أنه يود لو خنقه بكلتا يديه، بينما سألته الصغرى بخبث عن قيمتها المادية، وإن كانت ستجعلهم من الأثرياء، ثم أطلقت لائحة من الطلبات، كأنها تطرده من الغرفة بلعنات متلاحقة، شاركتها الكبرى اللعبة، مُرددة بسخرية درسه الأثير: النقود لا تسقط من السماء ولا تورق فوق أغصان الشجر. فردت الصغرى: إذن لن تنفعنا الجائزة في إسقاط الحصار.

تراجع عن قرار إخبارهما ثم عاد إلى فراشه بصدر تنغزه الوحشة، تحسس الكدمة في باطن يده، كانت جافة وبيضاء. طار النوم من عينيه، لقد سكنته فكرة سمير كدودة تنخر رأسه، ربما عليه فعلا أن يحتفل كما اقترح بكسر روتينه اليومي، خلخلة بسيطة في الانضباط الذي فرضه على نفسه، مُحاكيًا نجيب محفوظ في التقيد بمواعيد صحوه ونومه وكذلك تدخين سيجارة كل ساعة، بالإضافة إلى صرامة لا تعرف المهادنة بشأن ما يدخل جوفه، مُقلدًا ميل زوجته الزاهد في الطعام والحرص على الطهو الصحي.

ماذا لو قرر أن يخرج الآن؟ أن يشرب قهوة حقيقية عوضًا عن المسخ الخالي من السكر والكافيين الذي يحتسيه؟ ماذا لو كسر

صيام جوفه عن الوجبات الدسمة؟ التفكير في الأمر أحيا داخله ما ظن أنه أماته عبر المجاهدة: اشتهاء اللحم.

تذكَّر مطعمًا لكبابجي في حي السيدة زينب يفتح أبوابه إلى الفجر، كان من رُواده في أيام السرمحة والعزوبية والسهر والسنوات التي اعتمد فيها كسب رزقه على المشي، ربما بعد أن يأكل سيترك سيارته ويدور في الشوارع بلا هدف، يؤمن أنه لو كان يملك هبة حقيقية بجانب الكتابة، لكانت قدرته على المشي طويلا دون أن يُنهك. احتفظ بتلك العادة التي اقتصرت الآن على نصف ساعة ذهابًا وأخرى إيابًا، لأن ذلك من تقاليد الكُتاب الكبار.

حزم أمره على الخروج. فكر في مهاتفة سمير ثم تراجع، لو أن هناك رفيقًا يستحق أن يحتفل معه فلا يوجد أَوْلَى من نفسه. ارتدى ملابسه، تعمَّد ألا تكون ثقيلة رغم ما يشي به الطقس من برودة وقد هزته نشوة الاستخفاف والتخلي عن الحذر. عند الباب، فاجأه ألم شديد بباطن يده. تأمل الكدمة التي صارت وردية ثم تجاهلها.

(2)

لم ينطلق مباشرة بسيارته، بل جلس لدقائق يتأمل الشارع الخالي من المارة، الأشجار المشذبة بعناية التي تصطف على جانبيه لتستقبل العشاق والحالمين، الجاهزة للانحناء لمنتصر. أدار الراديو، فصدحت أغنية «هذه ليلتي» مع خَرْوَشة خفيفة لم تُزعجه.

تذكر أستاذه فرج الكفراوي، الشاعر والروائي المنسيّ الذي توفي قبل ثلاثة أعوام. لَكَمْ أزعجه نبأ موته، لقد بكاه طويلا، لا يعرف إن

كان ذلك لأنه فشل في التخلص من حبه أم أنه تمنَّى لو ظل حيًّا من أجل أن يشهد لحظة كتلك، فيوقن ذاك الذي طالما عدَّه أقل تلاميذه موهبة، أنه ليس مجرد وجه خُلق للنسيان، فقد بلغ ما لم يبلغه متجاوزًا أخطاءه، متبعًا حس العقل، مرشده الوحيد في عالم خطر، متقلب، شرس، لا بقاء فيه لأحمق أو مغفل. ومَن أكثر شراسة من الكُتاب، المُسَممين بالأمل؟!

رغم كل شيء تمنى حقًّا لو عرف كيف يكرهه.

لم ينسَ أبدًا اليوم الذي قابل فيه الأستاذ للمرة الأولى بمعرض الكتاب وهو ما زال طالبا بالجامعة، يدور بقصائده العمودية الركيكة، بحثًا عن مستمع أو شاعر قد يتحول يومًا إلى حليف، قادته قدماه إلى خيمة كبرى قماشها يُطعم حيًّا بأكمله إلا أن ندوة الشعر لم يحضرها إلا تسعة شعراء وقطة ضالة وذبابتان. ألقى الشعراء قصائدهم البائسة على بعضهم البعض بغطرسة وإنكار، لا عين ترى ولا أذن تسمع.

كانت ندوة بلا روح أو وهج، إن مررت من بعيد تحسبها صوانا لميت بلا محبين، حتى دبَّت قدم الأستاذ في المكان، فارتج كل شيء لحضوره، فأحيا الميتة وأيقظ الموءودة وأوضح مكانة المتردية والموقوذة وما أكل السبع. الريح عن شماله وعصا موسى عن يمينه تتلقف ما صنع السحرة الأصاغر التافهون، يخطو بقوة لكن كأنه يمس الأرض مسًّا. كان وسيمًا، بقامة طويلة مستقيمة، بعينين نافذتين وطَلَّة مهيبة، تحيطه هالة من ضوء لا تفارقه، بشرته قمحية، شعره فضي اللون، ناعم، غزير، له جبين متغضن كعجوز، ووجه صافٍ

لشاب لم يعضه الزمن، ورأى المفتون في ذلك أعجوبة بسيطة من أعاجيبه، وكذلك أنف مُقوس ومنخاران واسعان لا يعوقهما شيء عن استنشاق هواء العالم، وفم يبتسم ولا يضحك، إذا نظرت إليه تحبه وتخشاه في آن، إذا نصح أشرق وجهه وإذا غضب أو لام يشق الرعب صدور مَن حوله.

بدخوله رأى أبدان الشعراء ترتجف وأجسادهم تتقزم وشعر القطة ينتصب في إجلال، أما الذباب فطار بعيدًا، أفسحوا له المنصة، فلمثله خُلق ذلك المكان. عاد الأصاغر إلى المقاعد الخاوية كتلاميذ عطشى لماء الشعر الصافي، ذاك الذي يأتي من نبع سريّ وغامض، يكابدون من أجل بلوغه، بينما ينفجر تحت قدمَي الأستاذ ببساطة التنفس.

وقف كرايةٍ منتصبة، أزاح الميكرفون بعيدا، ثم ألقى أبياته بصوته البديع وإشارات يديه القويتين ليمسك بزمام أرواح الحاضرين ويرفعهم إلى علٍ ليقفز بهم من شاهق، يحطم رءوسهم ألف مرة لتنبت من جديد وتطالبه بالمزيد، فتت قلوبهم بين إصبعيه، قلبها كما شاء، يطيح بها ذات اليمين وذات الشمال، الدماء التي سالت كانت فداءه.

لا يتذكر الأعور كم لبث! ساعة كأنها الدهر، أو دهر مرَّ كلمح البصر. لكن ما إن انتهى حتى حدثت المعجزة، أفاق من النشوة، ليجد المقاعد الخاوية وقد اكتست بسيل من البشر، تكدسوا بين ممرات المقاعد، في صفوف طويلة تبدأ من الخيمة وتنتهي ربما داخل نفق بعيد مُعتم.

عندما نزل من المنصة، سجد الشعراء التسعة بين يديه، قائلين بدموع التائبين: أنت سيدنا ومولانا الذي علّمنا السحر. باركهم بلمسة من يده. ثم أشار إلى واحد منهم، قائلا: أنت يا ابن دين الكلب.. ستنكرني عند صياح الديك ثلاثًا. ثم أشار إلى آخر، قائلا: لست شاعرًا.. أنت قاصّ، حتى لو تلبست الجسد الخطأ، العمليات الجراحية لأشياء كتلك صارت سهلة الآن. ثم أشار إلى شخص ثالث: لو فكرت أن تكتب بيتًا واحدًا فسأطاردك في كوابيسك، سأعلق صورك على واجهات البارات والمقاهي كفضيحة. أما الستة الباقون، فقد حدق فيهم طويلا، قبل أن يقول بحزن: لبس المُدّعون لباس أهل المعاني وعز العارفون كالكبريت الأحمر. لو استطعت أن أنقذ أرواحكم لفعلت.

عندما غادر إلى خارج المعرض ليحتسي القهوة ويدخن الشيشة، كأنه لم يأتِ لتوّه بشيء خارق، تبعه الأعور مع شلة من المسحورين وظل يلقي عليهم شِعره طيلة الليل. ينفث الذهب من فمه مرة ودخان الشيشة مرة، حتى أطلّ الفجر، فاستأذنهم في الرحيل.

يدرك أن ذاكرته مَزجت ما حدث فعلا بخرافة المفتون.

لم يكن يعرف حينها أنه قابل أستاذه في لحظة مفصلية بحياته، وأن تلك الندوة التي رآه فيها ستكون ندوته الأخيرة، فبعدها بثلاثة أشهر، عاين الكفراوي ملاك الموت وجهًا لوجه بعد أن صدمته شاحنة فكّكت أوصاله، فلما نجا بأعجوبة واستعاد عافيته، قرر أن ينذر ما تبقى من حياته للكتابة. الملك المُتوج في زمنه، نجم الندوات

ومعرض الكتاب والأمسيات الثقافية، الذي يملك السلطة والنفوذ عبر إشرافه على سلسلة نشر أدبية للكتاب الأول، اعتزل القاهرة وبريقها واستقال من الإشراف على السلسلة مُعتكفًا في حلوان لإنجاز مشروع روائي يدور حول مكان واحد يُدعى عزبة فاطنة، قرية ميلاده. كان يتفاخر بها ويقول إنها تعادل «ماكوندو» ماركيز.

رغم أن الأعور لم يفوّت جلسة واحدة من جلسات الخميس حيث كان الكفراوي يقابل تلاميذه على مقهى قريب من بيته، حتى عندما سافر إلى الخليج، كان يحرص على زيارته في كل إجازة، إلا أن الكفراوي لم يُبادله التقدير، أنكر موهبته وسخر منها وراوغه مرارًا، ولم يمنحه من الأسرار إلا القشور، لكن شيئًا فشيئًا، ومن خلال ملاعبته على ثغرة شعوره بالعظمة وإحساسه أنه لا يقل أهمية عن أكبر أدباء العالم، استطاع أن يُذيب صقيع المسافة. حتى جاءت اللحظة الهامة والتي انتظرها طويلا، عندما قرر أن يجعله تلميذه المقرب، ودعاه إلى منزله، وكان هذا أقصى تكريم ممكن. كم أسعده هذا رغم أنه تجاهل الوجه الآخر للحقيقة، فقد انفضّ عنه الجميع، كان تلميذه الأخير.

لم يكن يحتاجه إلا لكي يساعده في نَسْخ نصوصه على الكومبيوتر. لم يجد الأعور مشكلة في الأمر، من أجل الوصول سيفعل كل شيء، حتى لو كان بالجلوس في غرفة مقبضة لنسخ عمل الأستاذ الجديد، ليتعلم كيف يكتب، كيف يفكر، كيف ينبت عمله من بذرة مسودات تافهة إلى شيء متجذر ملموس، كيف يُعدل، وكيف يرى الزائد كنبت شيطاني ليحذفه، من أجل سبر أغوار خبرته

وحكمته لم يكن ليكتفي بنسخ نصوصه على الكمبيوتر، بل في روحه، وقد هيأ نفسه لشرب كل كلمة ينطق بها.

في الليلة الأخيرة لنسخ الرواية، استوقفه البواب بعين نعسة وعين يوقظها الازدراء تسأله عن وجهته، رغم أنه عبرَ ذلك المدخل عدة مرات من قبل، ودَّ لو أمسك به من تلابيب جلبابه، وأجبره على تفحُّص ملامحه صارخًا: انظر إليَّ جيدًا أيها القذر، فذلك الوجه لم يُخلق للنسيان، لكنه أخبره باسمه ووجهته.

على عتب البيت، ارتسمت على وجهه ابتسامة مشرقة وواعدة.

فتح له خادم عجوز. أخبره بوجوم:

«جئتَ قبل موعدك بنصف ساعة».

«سأنتظر».

أرشده إلى أريكة الصالة. أشعل سيجارة، دخَّنها ببطء، يشربها على أوقات متباعدة، عملا بنصيحة الكفراوي.

سأله الخادم عما يشربه. أجاب:

«قهوة على الريحة في فنجان».

قال بنصف ابتسامة وقودُها اللؤم:

«كالأستاذ؟».

أومأ برأسه في برود. أحضر القهوة، دخَّن سيجارة أخرى قبل موعدها لينفث التوتر، مرت ساعة كاملة قبل أن يأتيه الخادم قائلا:

«الأستاذ في انتظارك».

أرشده الخادم إلى محراب الكفراوي. لا وصول إليه إلا عبر ممر ضيق وطويل، على جدرانه صور لأغلفة كتبه، الجوائز وشهادات التكريم التي حصل عليها، صور له مع كبار الكُتاب العرب، ندواته في معرض الكتاب قبل أن يصير ذئبًا منبوذًا. كان الأعور يسميه ساخرًا بـ: «حائط البطولات».، فلم يكن يهدف إلا للترهيب والتمهيد لدخول تلاميذه خاضعين بين قدميه.

تبع الضوء في آخر النفق. عبرَ باب الغرفة نصف المفتوح ببطء، لكن بثقة.

كان الكفراوي يجلس خلف مكتبه محدقًا في الفراغ، يعبق الغرفة ضوء أزرق خفيف، وصوت «أم كلثوم» ينساب من مكان خفي، صافيًا وحيًّا، كأنك تجلس في إحدى حفلاتها.

أشار له بالجلوس، قائلا:

«جاهز يا بطل؟ لدينا ليلة طويلة».

بدأت أغنية «ثورة الشك» لأم كلثوم.

سأله الأستاذ:

«ما أخبار ديوانك يا محمد؟».

قال بثقة:

«يتجاهلونه كشأن كل أدب جيد».

«وروايتك التي تعمل عليها؟».

«ما زلت أحاول يا أستاذ، رواية مرهقة رغم أن كل أحداثها مرسومة بدقة في رأسي».

ادّعى الأعور أنه يكتب رواية، مُقلدًا أستاذه، لكنه لم يخطّ بها حرفًا واحدًا. روحه كانت خاوية من أي فكرة.

أعطاه كتابًا تخيره من مكتبته، قال ببراءة الذئب:

«ستساعدك تلك الرواية.. تلك نسختي اقرأها مُجددًا مع شروحي وتعليقاتي».

كانت رواية دون كيخوته، مطوية على صفحة بعينها، فأدرك أنها واحدة من ألاعيبه، فتحها وقرأ سريعًا ما خطّه على هامش الصفحة:

«تعريفي لرواية القصص أن صوت الريح أمر جبار لا يمكن إعادة اختراعه دون لعنة ما، رغم ذلك ما أن ينكبّ المرء على قراءة الروايات، حتى يمتلئ وهمه يقينًا أنْ لا شيء يعدل سحر هذا المخزن الهائل من التصاوير والأحلام، وأخيرًا، يفقد صوابه، وتستبد به فكرة هي أغرب ما يتخيله مجنون في هذه الدنيا، فيرى أنه من اللائق، بل ومن الضروري سواء لتألق مجده أو لخدمة الأدب، أن يصير روائيا، الأعظم على الإطلاق. يبدأ رحلته كمَلِك مؤجل عرشه في عماء، منتحلا ما قد ظن أن جميع الكُتاب العظام قد فعلوه. يظن أن العالم سيخسر كثيرا إذا ما تأخر، ويؤمن أن نداءه الإلهي هو ردّ ما وجّه للأدب من إساءات، وإنصاف شعوب القراء من الكُتاب الذين نالوا الشهرة بدون وجه

حق.

يتوهم ـ هذا المسكين ـ أنه يملك من الموهبة والذكاء ما سيتوج على أقل تقدير بمملكة وعرش من المجد والضياء الخالد. هكذا يتجاهل الكاتب، أن الرغبة في الانتماء إلى سلالة سيرفانتس، بدأت بلعنة مماثلة لحماقة دون كيخوته.

لكن تحت سوط الشمس والحقيقة، ينكشف للوجه الذي ظن صاحبه أنه لم يخلق للنسيان، أن لا شيء سوى بخار وضباب. لن يفيق أبدًا ليسأل كيف تضاءلت أحلامه الكبرى من سعي جاد إلى الخلود، إلى تسوُّل التقدير عبر ألاعيب حواة في سيرك، إلى فرح بالنجاة من رعب تافه، كخذلان ندوة فارغة».

تجاهل الأعور رسالة أستاذه المبطنة، قائلا:

«سأعتصر نصائحك في قلبي».

«يعجبني اجتهادك. ذات مرة في شبابي، قابلت شابًّا صغيرا كان يرغب في الكتابة بعد أن سحرته رواية لاعب الشطرنج. موهوبا كان، لكنه لم يخرج إلا نصوصا سيئة ومتوسطة، لكن في نوبة تنوير أدرك ما عليه أن يفعله ليجد الكتابة ويشعل جذوة موهبته، أتعرف ماذا فعل؟».

أشرقت روحه في فضول بالغ، منتظرا التهام السر الذي سيسقط من فمه.

صمت لثوانٍ بأسلوبه المسرحي، قبل أن يقول:

«ذهب إلى سانت كاترين وتسلَّق جبلا، كي يقتحم العقبة، ذواتنا، محل كل مرض وشَكّ، كل عداوة، حجاب الكتابة، كي ينفيها فلا يضله الحزن والفرح، المديح والقدح».

«وهل نجا؟».

«لا أعرف.. لم نسمع عنه من حينها.. ربما أكلته عاصفة ثلجية».

ارتسم الإحباط على وجهه، فتابع الأستاذ:

«لكن المحاولة بالتأكيد أفضل من إحراق الغابة لقطف ثمرة».

تجاهل للمرة الثانية خبث مقصده، فقال:

«أنا جاهز للعمل».

لم يتوقف عن النسخ إلا بعد أربع ساعات مرهقة، ليفاجئه الكفراوي بما لم يتوقعه عندما انتهى من طباعة الأوراق. شطب على اسمه بقلم أحمر، وكتب اسمه محله، ثم أعطاه الرواية قائلا:

«خذها يا محمد».

«ما هذا؟».

«روايتك الأولى».

ألجمَته الدهشة، قال:

«لا أفهم!».

«هذا قرباني لك».

«قربان!».

«كي لا تسرقني».

«لستُ لصًّا». قال بغضب.

«أليس لهذا السبب ترافقني بعد أن انفضّ عني كل تلاميذي؟».

«كل ما أردته هو أن أصبح مثلك».

«لكن دون حماقاتي».

نظر إليه بعينيه النافذتين كأنه يخترق روحه، ثم تابع:

«ألا تشتهيني يا أعور؟ ألا تدور تلك الفكرة في عقلك، أن تنتظر حتى يأكلني النسيان، لتنتحل تجربتي نصًّا بعد أن تنزع عنها بسذاجة ما تظنه أخطائي؟ أليس لهذا السبب تنسخ أعمالي؟».

«أنا أقدرك فقط كأديب كبير».

«أتظن حقا أن عينيك تُخفيان أي شيء؟ إن رداء التملق الكاذب سيستر حقيقتك إلى الأبد؟».

«أي حقيقة؟».

«طموحٌ دون قدرة، بازغ كحجرين في مُقلتَي أعمى. روح مُختل مُضطرب ممزق بين شعور بالاستحقاق والاضطهاد. قلب هو أتون من الأحقاد والكراهية، شهية عاجز لن يشبعها إلا افتراس الجميع».

«كل إيماني بك كان محض هباء، لم ترني يومًا إلا كلص مجنون حاقد».

«لا أحد يمكنه تأكيد هذا سواك».

غادر دون أن يتفوه بكلمة، الأرض كانت تميد به. استند في طريقه إلى الخروج على جدران «حائط البطولات»، يكاد أن يطبق على ضلوعه. عندما تنفس هواء الشارع وجده راكدا، خانقا، بدا له الشارع كأنه جوف مظلم يبتلعه. البيوت المصطفة على الجانبين، تُشيعه بضحكات ساخرة. جلس على الرصيف، مُنهكًا، مُستسلمًا للرعب والبكاء.

(3)

كان الهواء البارد يُغري بالسكينة والاستسلام لنعاس طويل، الصقيع يزداد وطأة والسماء تستعد لنوبة من المطر الغزير، كأنها تسخر من تخليه أخيرًا عن حذره وروتينه اليومي الذي يضمن له السيطرة على عدوه الأول: الزمن.

شعر بالانكشاف ونغز صدره نذير شؤم وامتلكته هواجس سوداء، وفاة كاتب في السابعة والأربعين بعد نزلة شعبية حادة، ثم لا شيء، كم من الوقت ستصمد كتبه إذا ما غابت غواية جسده وبريق حضوره؟ لم يبدُ السعي إلى الخلود الآن كنكتة؟ هل سينتشي بما حقق خلف حُجب الموت؟ أم أنَّ لا شيء خلفه سوى العدم والصمت؟ ألهذا تمكن سمير من إقناعه بالنزول للاحتفال في الثانية صباحا بطقس كهذا؟ لأنه يدرك أن خلف أقنعة كثيرة يرتديها فإن كنه روحه وحقيقتها لا تؤمن إلا بما يمكن الإمساك به باليد.

حاول إسكات الهواجس، قوته مُستمدة من الإيمان لا الشك، لو

سمح لنفسه بأسئلة كتلك، لما خطا خطوة.

انطلق بعربته ببطء، عابرًا عدة شوارع، ثم توقف أسفل شجرة الجميز، فخر الحي التي تخطَّت مائة عام، شاهدة على الحمقى والمختلين والشجعان، يقولون إن أرواح الموتى تأتي على هيئة طيور لتحتمي في الشجرة المباركة! وحده يعلم أنها ليست الحقيقة، أو ربما كانت لكنها لم تعد، لا أحد يتلبس تلك الشجرة إلا روح واحدة، روح الشيطان، ولا تعرف أبدا على أي هيئة ستأتيك، طائر أو كلب أو امرأة تحمل فأس الجبروت وتطيح بكل رأس بحثًا عن عاشق جدير بها، شيخ أم وخز في العمود الفقري أم شبح لروائي وشاعر منسيّ وغاضب يهدد بالانتقام.

هبط من السيارة، توقف أمام الشجرة، اقترب من جذعها هامسًا: لا أخشى شيئا ولا الشيطان ذاته.

لم يفقد كل حس بعد، ما زال ذهنه يقاوم الوهن، فلا أشجار مشذبة اصطفت لاستقباله ولا شجرة جميز عتيقة هناك، بل كباري، أسفلها مطاعم وكافيهات، لم تكن هلاوس الجمال والخرافة وهمس الأشباح والشياطين إلا أشياء هاربة من أحلامه، لكنه كان يأمل أن تطرد جملته الواثقة ذلك المخلوق الخيالي الذي استغل وهن جسده وروحه طيلة أربعين يومًا من النوم الشحيح، لينسج شبكات الأوهام حول عقله، والذي يكاد أن يستشعر أنفاسه الثقيلة الغاضبة وهي تطارده كظله.

كان يقف تحديدًا أمام كافيه كتب على واجهته الزجاجية: «وما

أطال النومُ عمرًا.. ولا قصَّر في الأعمار طولُ السهر.. كافيه الصحبة.. قهوة ومخبوزات 24 ساعة». رغم خبرته بشوارع المنطقة إلا أنها المرة الأولى التي يعرف فيها بوجوده.

الغيوم الكثيفة هطلت بالمطر، فضاعفت رائحة الماء من جوعه، يشتهي خروفا كاملا، سيأكله وحده دون شريك. الصقيع جعل اليقظة جحيمًا والنوم فردوسًا لا يضاهيه شيء، مملكتي مقابل نوم هانئ وطويل، أطلق ضحكة عابثة، لكن عطشًا جارحًا حط على حنجرته، فخرجت كعويل مكتوم ولدغه جوع سنوات طويلة، فكر في حماقة أن يذهب إلى السيدة زينب ليأكل في طقس كهذا. ركن سيارته ودلف إلى الكافيه، ذلك بالضبط ما يحتاجه لكسر روتينه ومراوغة جوعه، دون أن يجعل من نزوته الطارئة مغامرة يتجاوز فيها حدود العقل.

(4)

للمخبوزات رائحة ملائكية كوجه المرأة التي بجواره. لم يكن هناك سواهما بالكافيه باستثناء صاحبه العجوز. أطلق نظرات مُختلسة، كانت امرأة حلوة، بدت ساذجة قليلا، لكنها حلوة، سمراء، ضئيلة الحجم، شعرها أسود غزير، أنفها دقيق، لها مؤخرة مسطحة ونهدان ينبتان بشق الأنفس، ملابسها أنيقة، حذاؤها رخيص.

دخلت بعده بدقائق مبتلة ترتجف، محتمية مثله بالمقهى هربا من المطر، تشي عيناها الزائغتان أنها لا تفكر في شيء محدد، شاردة حد أنها لم تشعر بوجوده، بدت منهكة، كأن كل ما تنتظره هو أن تلقي

بجسدها فوق أول فراش لا يحفه الغدر، لم تطلب سوى زجاجة مياه، تحسبًا للرحيل سريعًا ما إن تنتهي زلزلة السيل بالخارج.

كانت موسيقى صوفية تنساب في المكان، حاول أن يتجاوب معها، لكن سرعان ما شعر بنفور عظيم، مُحب ابن الفارض الذي تربى على الأناشيد الصوفية والحضرات في بيت أبيه، لا تثير فيه موجات الفيض شيئا الآن سوى رعشات قابضة أسيانة. أشعل سيجارة، أعقبها برشفة من فنجان القهوة، طلب المزيد من المخبوزات. كانت شهية. تعجَّب من قلة رواد هذا المكان البديع الذي لا يعمل به سوى صاحبه.

سأله:

«هل ترغب في شيء آخر؟».

«زجاجة مياه».

تلك هي الثالثة في أقل من عشرين دقيقة! لا بد أنه كتم اندهاشه من عطشه في طقس كهذا.

شيء ما بخصوص تلك المرأة يثير اهتمامه وغضبه، بدا له فرجها جافًّا كحلقه. تلاقت أعينهما مرة، لكنها أشاحتهما في فزع، أربكه هذا. بمقاييس النساء هو رجل وسيم، تفوح من جسده الجاذبية والعطر. علل الأمر بالإرهاق الذي أصابه من قلة النوم.

أحضر صاحب المقهى قطعة كرواسون بالزعتر ـ على حساب المحل- وزجاجة مياه، ومعها نسخة لطبعة فاخرة من روايته الأخيرة ليوقعها له. قدمها بشيء من الخجل، كان سبعينيًّا، قصير القامة،

بقدم تعرج، أشيب، حواجبه ثقيلة، عيناه ضيقتان وأسنانه أكلها سوس الزمن ومحبة الحلوى، وجهه متغضن كخريطة كنز بالية، كان قبحه بديعًا، وموسيقاه تشبه رحى الطحين.

سأله متوقعا الإجابة:

«هل أعجبتك؟».

«قضيت أمتع أوقات حياتي أثناء قراءتها، لقد بكيت عندما انتهت، فليبارك الله موهبتك الفذة. أسأله الرحمة حتى يصدر عملك القادم».

«هل تظنه مهتما؟».

رد مرتبكا: «مَن؟».

لم يُجبه. وقّع النسخة، التصفيق ينتشر كعدوى، آلة دعايته كتروس تطحن الجميع، رغم عدم شكه ولو للحظة في استحقاقها، إلا أنه يعلم كيف بلغت تلك العبارة فم العجوز بعد أن ترددت مئات المرات في عقله كأصداء وظلال، حتى ظن أنها عبارته الأصيلة وقناعته التي لم تختلط بنقيق الضفادع. لا يلوم نفسه. كم بلغ عدد كُتاب الرواية؟ مئات؟ آلاف؟ ملايين؟ كيف يميزه الرجل العجوز إذن، إن لم يلقم العبارة في حنجرته؟

لم تلتفت إليه ولو مرة. ربما لا تقرأ الأدب. لكن، ألم تُميز وجهه؟ فشُهرته تخطّت الدائرة الضيقة للكتاب.

سأل صاحب المقهى:

«هل مخبوزاتك هكذا طازجة على الدوام؟».

أشار إلى صدره بفخر، قائلا:

«بلى.. لأن روحي كذلك».

تحركت الدودة النهمة في جوفه. يظن الرجل أن إشارته محض مَجاز، راقبه وهو يعود إلى مكانه فرحًا كطفل بالإهداء الذي كرره لآلاف مثله، دون أن يعنوا له شيئًا، لطالما حلم باختراع ماكينة لتوقيع الروايات لها يد تنتج إهداءات متنوعة مع رغوة تحمل رسومات بديعة وصور المعجبين داخل قلب ممزق بسهم، فيده كلّت من النباح بالإهداءات الجميلة لمعجبيه، كما أنها في النهاية يد بشرية، ضعيفة، عاجزة، لا تقوى على توقيع الإهداءات بتلك الكثافة، وكلما زاد عمره، كلّ بصر يده ووهنت ذاكرتها، فلم تعد تُميز بين معجب وآخر، لو وجدت ماكينة كتلك لأنقذت يده من شقاء العالم.

على عكس وجهها الملائكي، كان للمرأة رائحة كراميل تعصره العفونة، بلا أمل في النجاة، موسيقاها محجوبة بشيء رهيب، على الرغم من ذلك شعر أنها المرأة المناسبة للاحتفال، أن يخرج بها من هنا ويضاجعها هو كلّ ما يشتهيه الآن. لن يكون ذلك محض خلخلة لانضباطه الصارم، بل المرة الأولى التي يخون فيها زوجته، لا يتذكر عدد النساء اللواتي قذفن أنفسهن في طريقه، ولا الرجال. لا تُقدر كريمة أي ألم عاشه، ألمٌ لمْ يأتِ من مقاومته لغواية الآخرين، بل من مقاومته لقدرته الهائلة على الغواية، إصراره على أن يسيطر عليها في اتجاه منضبط، لا عن إخلاص لها، بل لتحقيق ما أراده دون زيادة أو نقصان.

تأملها من جديد، لها رأس صغير مستديرة فوق رقبة عصفور، تتلفت حولها بالكيفية ذاتها، تشعر أن بإمكانك – بقليل من رباطة الجأش- أن تنزعها بيديك.

آمِلًا في لفت انتباهها، خاطب العجوز مستغلا ولعه بما يكتبه:

«ما أطيب مخبوزاتك! كنت أحتاج إلى مكافأة في روعتها، فالأدب مرهق، قاتل، يستوجب تضحيات شديدة، لا أجد الوقت ولو لمتعة بسيطة ونقية كتلك».

«كان الله في العون».

«أظننا متشابهين في الجوهر، الرواية كالخبز الجيد، تحتاج إلى صانع ماهر ودقيق، متجرد من الشهوة والالتفات كي يصل إلى إتقان وصفته، كلانا يحمل ذلك السر الإلهي الرهيب الذي يُدعى الموهبة، أتعلم ما أراه عندما أنظر في عينيك؟».

قال العجوز ببراءة:

«الطزاجة.. كما أخبرتك؟».

«بل الإيمان. القدرة على أن نقتحم العقبة، ذواتنا، محل كل مرض وشك، كل عداوة، حجاب الرؤية. كيف ننفيها، فلا يضلنا الحزن والفرح، المديح والقدح؟».

أومأ برأسه.

كان يعلم أن العجوز لم يفهم حرفًا من كلامه، لكنه لم يكن يعنيه به، بل قصد به المرأة التي قد تجد شيئا ما يريح روحها المنهكة في

النبرة الصوفية الغامضة لعبارته، حيلة جربها كل الدعاة والكُتاب الأكثر مبيعًا. لم يخشَ غموض كلماته، فذلك يجعله لافتا للانتباه وأكثر جاذبية، يفتح طريقا للغواية عبر شرح ما استعصى، كما أن نبرة الزهد في كلامه ستخفي غطرسة الاستعراض التالي:

«سأخبرك سرًا، بعد سبعة أيام سأكون أصغر فائز بجائزة الدولة التقديرية للآداب».

تجاوز تهنئة العجوز، قائلا:

«أتظنني سعيدًا؟ على العكس، كل المغانم التافهة في الطريق، ليست إلا أشياء تُسمّم أرواحنا وتضلها عن بلوغ الهدف، حتى إني أفكر في رفض قبولها».

التفتت أخيرًا، أخرجت سيجارة من حقيبتها، أشعلتها، أخذت نفسًا عميقًا منها، نفثته إلى اللا شيء، رشقت عينيها بعينيه كسكين، باغتته بجرأتها:

«كيف تحيا وكذبة بهذا الحجم في قلبك؟».

استدار إليها بكامل جسده وقد كافح غضب نفسه، ليرسم على وجهه ابتسامة واثقة مطمئنة هادئة، لم يكن الاتهام الأول ولا الأخير، من هنا بالضبط يعرف كيف يحول الأمر إلى مكسب، صَنْعَتُه الكبرى التي كسب منها عيشه في شركات الأدوية بالخليج والقاهرة، كانت الجدال والإقناع بكل وَهْم، تغيير الآراء، استمالة العقول والقلوب، عقد صفقة يظن فيها الطرف الثاني أنه ربح أكثر من طرفها الأول، وها هي المرأة الغامضة تكشف بعد طول عناد عن نفسها، وتمنح

للسانه موطئا داخل عقلها، لذا سألها بنبرة باردة، تخبئ الاستهزاء بادعاء الرغبة في التواصل والفهم:

«أي كذبة؟».

«الكلمات البلهاء التي قلتها قبل قليل».

«وما الذي يجعلها بلهاء في نظرك؟».

«لأنك سرقتها».

«كل العباقرة من الأدباء يسرقون من بعضهم البعض.. أشك في أن بإمكانك فَهْم شيء كهذا».

«نعم يفعلون، كل أدب عظيم بُني على آخر.. لكن وحدك تجر تلك الكلمات إلى التفاهة، لأنك لا تؤمن بها أو تفهمها، تشيد بها بُنيانًا ملفقا لا أساس له في روحك».

«أوه.. هذا اتهام خطير».

«وما تفوهت بكلماتك تلك إلا كي أقع تحت سطوة ما تظنه سحرًا لا يقاوم».

ضحك بصوت عالٍ، قائلا:

«لم أركِ إلا هنا للمرة الأولى ولدقائق، لم نتبادل حديثًا، ورغم ذلك تدَّعين أنكِ تعرفين حتى ما أفكر فيه. يا للغرور!».

قالت ببرود:

«أعرف ما يكفي، لقد قرأت كل حرف كتبته».

فضَّل ألا يتخلى عن ثقته كي يستفزها أكثر، فسألها:

«وما أكثر رواية حظيت بإعجابكِ؟».

«ولا واحدة.. كتابة جديرة بلصّ تافه، مسخ من أرواح الآخرين».

سعل العجوز اللئيم، ولم يعرف الأعور إذا كان يكتم حرجه أو ضحكاته، أو أنه قد اكتشف لتوّه زيف رأيه السابق.

«تلك مسألة أذواق. لا يمكنني التحكم في رأي كل فرد، لقد واجهت ما هو أكثر، لكني لم أستسلم، ربما لهذا سأُكرم على ما أنجزت».

قالت:

«لكل إنجاز لا بد من شاهد».

صمت مُندهشًا للجملة التي بدت كأنها صاعدة من أعماق عقله، فأردفت:

«وكذلك كل جريمة».

واصلت دون رحمة: «هذا ما تحتاجه كي يهدأ عذابك.. شاهد على ما اقترفت يداك».

انصرفت مُسرعة دون أن تنتظر توقف المطر.

حط صمت عميق إلا من صفير جارح يخرق أذنيه، اقترب من صاحب المقهى، قائلا:

«أعتذر لك عما سيحدث، أشعر بالمودة والامتنان تجاهك.. قاومت

شهوتي بعنف، لكن الغضب يجعلني ضعيفًا، كما أني لم أنم جيدا منذ أربعين يومًا»..

أطبق بيديه القويتين على العجوز الذي قاوم بكل ما أوتي من قوة حتى إنه جرح وجهه ورقبته بأظافره الحادة، لكن الأعور تمكن منه، طرحه أرضا ثم شق حنجرته، رقد بجواره منتظرا أن تفر من روحه الأفاعي، الظلال، جوقات الشياطين، طيور الفزع، انطفأت كلها كشُهب، هل سقط في قاع كابوس جديد أم أن ذلك يحدث حقا؟ لم يستطع التمييز.

رأى المرأة خلفه. نسيت حقيبتها، ظن أن الرعب سيأكلها، كاد أن ينقضَّ عليها دفنًا لسِره، لكنها لم ترتبك لثانية، تقدمت تجاهه، انحنت بجواره أمام جثة العجوز، دفست يدها في حنجرته كسياف ماهر يقصم بضربة واحدة حكاية عند رقبة الذروة، حتى وجدت علقة بيضاء، سر روحه: الطزاجة، انتزعتها بيديها دون أن تتردد، فانطلقت منها موسيقى وأنوار وأشباح ظباء مُلونة بحجم الكف.

مدَّت له يدها بالعلقة البيضاء، لم يستطع أن يمنع نفسه من ملاحظة أظافرها الطويلة المتسخة، تقاسما علقة السر معًا، طحنا طزاجتها بأسنانهما، مصَّا عصارتها كلمعة ضوء، كلمح البصر، كدفقة ماء، كرعشة لذة، ككل سراب امتلك روحيهما واعتقدا فيه خلاصهما، ثم لا شيء، تفتت السر كدخان في الهواء، دون أن يصمد في جوفيهما.

أشرقت داخله ابتسامة واهنة، هي مثله، كانت تشتهي الطزاجة

في روح العجوز. عندما انتهيا، كانت أيديهما مُدماة. نظر إليها، الندم ينهش وجهها ويجعله كئيبًا، رائحة العفونة تلفها كشرنقة.

سألها:

«ما اسمكِ؟».

لكنها فرَّت مسرعة إلى الخارج. هرول وراءها، لمحها تختفي في أحد الأزقة فتبعها، لكن سرعان ما اختفى أثرها. قبل عشر سنوات، كان بإمكانه اللحاق بها بسهولة، لكن قدمه تخونه، الغيوم كانت ترتجف وهي تُلقي حمولتها الأخيرة، وقمر من قش يتبعه أينما حلَّ بعينين متفحصتين. توقف عن الهرولة، التقط أنفاسه، ثم أشعل سيجارة أخرى.

(5)

استيقظ في السادسة صباحًا بأنف يشتهي خبزًا وقهوة حقيقية، لكن ما أن غادر فراشه، حتى طرد تلك الرغبة بعيدًا، سيُعد فطوره المثالي كما اعتاده كي يمنع الهذيان من إفساد حياته، ما حدث كان كابوسًا، لم يخرج من المنزل. لم يقابل امرأة في كافيه، لم ينزع الطزاجة من روح بائع الحلوى بشق حنجرته.

اتجه إلى الحمَّام ليغتسل. رأى آثار خدوش وجراح سببتها أظافر مُستميتة. تجاهلها بثبات وعزم. إن تزحزحت صخرة الإيمان لتهشَّم تحتها. هبط الدرج إلى الدور الأرضي.

ذهب إلى المطبخ ليعد وجبة إفطاره: قطعة صغيرة من جبن

منزوع الدسم، ربع رغيف، بيضة مسلوقة دون ملح، ثم سلطة الشوفان التي يسد بها ما تبقى من جوعه، بعدها سيحتسي قهوته الخالية من السكر والكافيين. أيملك رهانًا آخر سوى العيش طويلا؟

تناول طعامه ببطء. حاول طرد المرأة التي قابلها ليلة أمس من ذهنه، لكنها كانت ملتصقة بتلافيفه كخفاش، لها وجه مألوف، يُذكره بمغص ما قبل الذهاب إلى المدرسة طفلًا. رغمًا عنه ظل يستعيد الحلم الذي صار بسبب حضورها فيه أقل وطأة. وجد في أظافرها المتسخة شيئًا من العذوبة، وعندما تذكَّر نهمها الذي يماثل نهمه في التهام روح الخباز أضاء وجهه بالبِشر، في أي ظرف آخر – حتى لو كان داخل حلم مخادع- لم يكن ليترك أحدًا يقاسمه وجبته بتلك الوداعة، لكنه شعر بالتعاطف مع رباطة جأشها ولأنه يعلم هول ما ينهشها.

راقب الصباح الرائق عبر الشرفة المطلة على حديقة صغيرة، سرى في صدره لطف النسيم المنعش وسبحت روحه في غمامة بيضاء من السكينة، كأنها تتجدد، نقر بأصابعه على الطاولة في دندنة تكاد أن تمسك بإيقاع العالم من قرنيه، لولا أن تسللت نظرة جليدية، تسلقت ظهره كسرب من النمل يسعى لالتهامه، كان يعلم مصدرها. عينا زوجته الحجريتان.

كانت تجلس فوق أريكتها، صامتة، تُشيعه بنظرات تجعل من كل وجبةِ طعامٍ مغامرةً شائكة، بصعوبة ينزع من خياله فكرة أنها تنوي تسميمه.

كفَّت كريمة عن مشاركته المائدة أو الفراش منذ ثلاثة أعوام. قد تمر أيام دون أن يرى شيئا يسقط في جوفها ولو حتى شربة ماء. أحيانًا يلح في طلب مضاجعتها ليمسك بلحمها النحيل، كي يتيقن أن مَن يسكن معه تحت نفس السقف ليس شبحًا. ترفض في الأغلب أو تعطيه جسدا متخشبا بلا روح أو رغبة، ثم تعود لتأوى إلى غرفة البنتين، وقد رأى في ذلك تسوية جيدة، فمن المؤلم النوم مع كومة الزجاج المكسور تلك.

لكن أن تفكر بقتله، أن تتحجر عيناها بهذا الشكل؟ ما يرعبه أنه لم يعد يثق بعينيه ولا عقله ولا حدسه الذي طالما كان صائبًا وأنقذه في أحلك المواقف وأعقدها، عليه أن يحافظ على هدوئه حتى يعود نومه إلى الانضباط. لا ينبغي أن يسمح للأرق أن يتلاعب بعقله، رغم ذلك استدار بغتة ليقبض على النظرة القاتلة، لكن عينيها كانتا مشغولتين بتطريز شيء ما بدأب عنكبوت، أو هكذا تدَّعي. في البداية لم يرَ ضررًا في هوايتها أملا في أن تعوضها عن الفراغ والحسرة التي ملأت روحها منذ أن أدركت زيفَ أوهامها في أن تصير كاتبة، لكن ذلك الغزل لا ينتهي، ولا ينتج شيئًا.

يشك أحيانًا إن كانت ترى أصلا بعينيها الحجريتين الذاهلتين الجاحظتين إلى الأمام، كأنهما ترغبان في السقوط من مُقلتيها والتدحرج بعيدا جدًّا، لكن تلك النظرة التي تطعنه، تجعله يقسم إن عينيها صارتا أكثر حدة من ذي قبل، أو أنهما عمياوان حقًّا، إلا عن صورة واحدة: صورته.

توجَّه إليها، رهبًا وطمعًا أن الخيانة تأتي من عينيه هو، قبَّلها

فوق جبينها، فانتفضت كأن جنًّا قد مسَّها، جرحت الإبرة إصبعها، انحنى ليمص الدم كعلامة حنان، لكنها رفضتها. حدقت فيه بعينيها المطفأتين الغائرتين بالخواء، والجفنين المتهدلين إلى أسفل تحيطهما هالات ذات سواد عميق، كتم غضبه ونظر إليها مُشفقًا، فقد كان يعلم الحقيقة، لقد ضحت بعينيها البديعتين من أجله.

كل ما استطاع فعله هو أن يسألها:

«ماذا تُطرزين؟».

قالت بنبرة معدنية باردة:

«الوقت».

عادت لهدوئها الهادر المخيف، تاركة إجابتها العجيبة لترن في عقله كألف إبرة شائكة في محيط رمادي من الفراغ. هل يتسلل إلى عقلها الجنون الآن؟ أم تدفعه إليه ببطء مَن يطهو الانتقام باردًا؟ صحيا كما اعتادت أن تطهو طعامهما، حريصة على مراقبة كل ما يهبط إلى جوفه. لهذا يعمد في الآونة الأخيرة إلى أن يُعد أغلبه بنفسه. ما موعد وجبته الأخيرة؟ كيف لم تسأله عن جروح وجهه ولا الخدوش التي تُظلل رقبته؟

لم تكن الأمور بينهما تسير على هذا النحو. أسعد زوجين في العالم! كما أطلق عليهما كل مَن رآهما عن قُرب وأدرك تفاهمهما العميق. هو وهي فقط في مواجهة الجميع، وعيناها كانتا الأجمل على الإطلاق، كنبعين صافيين يكشفان جوهر المرء ما أن ينظر فيهما، لكن النبع الصافي كان مكشوفًا بدوره، يفضح خططه ومخاوفه ونقاط ضعفه،

ثغرته الأخيرة. يتذكر أن سبب زواجها منه، أنه الشخص الوحيد الذي لم تتمكن من سبر أغوار عينيه والتسلل إلى جوهر روحه، فأحبته، على أمل أن يكشف لها القرب كُنه ما يخفيه، أخبرها بسره بعد سنوات من الزواج، لقد تمرن طويلا ليجعل عينيه اليقظتين كسُور يحجب مشاعره وأفكاره، أبهرها هذا، حاولت تقليده، لم تفلح إلا في أن تجحظ بهما إلى الأمام.

أحيانًا يلوم سمير عبد الرءوف على زرع البذور الأولى للشقاق.

حدث ذلك بعد عودتهما من الخليج بأشهر قليلة، فبعد أن جهزا لسمير سهرة في بيتهما كي يتقربا منه، فيمنحهما شيئا من مفاتيح الأبواب المغلقة، ألقى في نهاية السهرة ملاحظة عن تطابق ملامحهما على عكس صورة زفافهما. علق حينها أن هذا ما يحدث لأغلب الأزواج عبر العِشرة الطويلة. تنصهر ملامحهما معًا كأنهما سبيكة واحدة. انزعجت كريمة من الملاحظة ـ بسبب الطريقة التي ألقاها بها ـ فما طرحه سمير بلُؤم كعلامة تؤكد نجاح حياتهما، لم يكن يعني لها سوى فشلها، كابوسها الأكبر هو أن ينحصر وصفها كمحض زوجة تابعة، لتصبح مجرد أداة ملحقة، كحقيبة للأستاذ وفق تعبيرها المفضل، ومع الوقت صارت كل خطوة ناجحة يخطوها تدق مسمارًا جديدًا في نعش زواجهما، فصارت تتهمه أنه وأدَ كل أحلامها وطموحاتها، وأنه خذلها عندما حان الدور لتلقي المساعدة، لكن ما ذنبه إن كانت ضعيفة الموهبة، على الأقل لم يخنها ولو مرة.

ما صار مخيفًا حقا، هو أنها كفَّت عن الشكوى واكتفت باتهام صامت، لذا تراجع عن إخبارها بفوزه، سيصطنع وجهًا مندهشًا عند

تلقيه إعلان النبأ.

غادر وهو يتشبث يائسًا بغمامة السكينة البيضاء، لكنه كان يشق طريقه داخل ضباب كثيف، باغته ألمٌ يده من جديد، كانت الكدمة تزداد توردًا، أما نظرة زوجته المميتة، فظلت ملتصقة بجسده.

(6)

تقول القاعدة الروائية الشهيرة: «إذا وصفت مسدسًا في الغرفة، فعلى المسدس أن يُستعمل». وهو ما يخشاه محمد الأعور، فهو بالفعل يملك واحدًا مرخصًا لا يفارق حزام خصره نهارًا ولا أسفل وسادته ليلا، وقد تحسسه قبل أن يتجهز للانطلاق بسيارته إلى عمله.

لا يعلم إلى مَن عليه أن يُوجه فوهته، أو متى.

يفكر أحيانًا أنه قد يحميه في لحظة فاصلة عندما تُقرر زوجته الانتقام مما تظنه عمرًا مهدورًا. ربما من زبائنه المغدورين أو الموظفين العاملين تحت إمرته، أو كاتب حاقد يشعر بالاضطهاد أو شبح أستاذه المنسيّ، لكن في أحيان أخرى يفكر في قرائه، لأنه يعلم القانون، وإن لم يكن هو مَن صاغه، فقد استغله كثغرة، فأنْ تتحول على يديهم إلى موضة تُمجّدك حتى تصعد بك إلى الذروة، يعني أن لا شيء آخر أمامهم سوى قتلك، بحثًا عن آخر يكررون معه دورة التمجيد والنفي، لقد مضى عهد آلهة الكتابة الخالدين ليحل محله عهد بائعي السلع. «يا لها من غصة!». قال لنفسه.

رغم أنها تخطت السابعة والنصف صباحًا، إلا أن غيوم الشتاء كانت تخبئ شمسًا دانية. غرَّه نورها الواهن، فحدق فيها بجرأة

وتمنَّى لو سقطت بين يديه كتفاحة، أبث. نجم غبي، مُدّع وبائس، ليست سوى أتون يشتعل بالعتمة، فما يبسط نوره على كل شيء يطمس الكل بدوره، ودَّ لو لوى عنقها وأجبرها بدورها على الاعتراف، فرحلته الطويلة لم تنهك روحه قدرَ اضطراره لمداهنة الشمس، شكل أصابعه على هيئة مسدس وصوبها نحوها لكن لم يسعه سوى إطلاق رصاصة فارغة.

يدرك أن ما يخيفه حقًّا هو قدرته على القتل، كل هذا الغضب المكتوم ينهشه من الداخل، كيف له أن يسيطر طيلة سنوات على جذوته التي لا تنطفئ دون أن ينهار! يحتفظ به في ركن ما، لكنه قد ينفلت كوحش جائع، فيدمر كل شيء فجأة. لولا لجام عقله لصار الآن مهزومًا تمامًا.

يا للحياة! أزمة بالغة التعقيد، لا يمكن فك أحجيتها دون قسوة القتلة وبرود فولاذيّ صارم، من أين تصعد العاطفة والهشاشة، الرغبة العارمة في البكاء؟

لا يسمح لأحد أن يرى دموعه. أعطِ أصدقاءك أو أعداءك نقطة ضعف، فتسلم لهم روحك، أليس هذا ما فعله فرج الكفراوي، عندما أدرك أن روحه مُعلقة برضاه؟ وكذلك زمرة مسرح الجامعة عندما عرفت أنه ـ هو صاحب العقل ـ يؤمن بأن العفاريت والأشباح حقيقة، فأعدوا له مقلبًا أقنعوه فيه أن شبحًا يسكن ملاءة سريره، فغادرهم باكيًا يرتجف.

مرَّ على ذهنه خاطر أن يمر على مكان الكافيه الذي زاره في الحلم،

فقط ليتأكد أنه لم ينهش حنجرة عجوز بحثًا عن طزاجة روحه. هزأ بنفسه، لكن دون تفكير قاد سيارته إلى هناك، لم يجد أثرًا له، بل محل زهور عاديًا. اطمأن قلبه، لكن بعد دقائق ساوره الشك مُجددًا. ماذا لو كان اتصال سمير عبد الرءوف أيضًا محض وَهْم، وكان نبأ فوزه الوشيك تلاعبًا قاسيًا من عقله.

أخرج هاتفه، لقد ورده اتصال البُشرى حقًّا بعد منتصف الليل. واصل طريقه إلى عمله بنفسٍ أقل عتمة.

بلغ مقر الشركة الصينية المتحدة، والتي تقع في عمارة ذات واجهة كالحة من أربعة عشر طابقًا، انتفض حارس العقار لمَرْآه، ألقى عليه تحية منضبطة تفرض الثقة والكبرياء لكن دون أن تزرع الغل، يحتاج هذا إلى مهارة لاعب حبل، خاصة في ظل احتقاره الدفين لسماجة البوابين، ولحقد قديم بينه وبينهم عندما كانوا يمنعونه من أن يدلف إلى بعض الأماكن، أو يمطرونه بالأسئلة كمتطفل.

استقل المصعد إلى الطابق السابع، حيث مقر الشركة الذي يتكون من شقتين واسعتين متصلتين ببعضهما البعض، أغلب غرفهما تستخدم كمخازن للبضاعة، بينما يتكدس عشرة موظفين وخمسة متدربين من مندوبي المبيعات في مكان ضيق، وهو أمر مُتعمَّد، كان يحرص أن يجعل عدد المقاعد أقل من عدد العاملين كي يذكرهم بفكرة بسيطة وضرورية: المقعد أغلى منك، حافظ عليه بالطاعة والعمل الدءوب، كما أن عليهم ألا ينسوا: المندوب الناجح مكانه ليس بين الجدران، بل في الخارج، الإقناع ليس هبته الأساسية، بل القدرة على المشي الطويل بإرادة فولاذية، ونظرة لا تتلفت عن الهدف، لذا

جعل من لوجو الشركة «هامستر» يركض داخل كرة زرقاء. عندما عرضه عليه مُصمّمه هتف من فوره: هذا مُبتذل. ارتبك المصمم لوهلة، قبل أن يضيف الأعور: وجميل.

تبيع الشركة الصينية المتحدة ـ حرفيا ـ كل شيء: منتجات علاج الصلع والضعف الجنسي والسِّمنة والنحافة وأمراض الضغط والسكر والقلب والعظام واللمباجو والانزلاق الغضروفي وآلام العمود الفقري، مراهم وأعشاب سحرية تقضي على الإكزيما والبهاق والصدفية، وكذلك الأدوات الكهربائية وأجهزة الكمبيوتر، فواحات السيارات والمراحيض، سوائل منظفات جافة، العجينة السحرية لقتل الحشرات، ستائر وبطاطين وحاملات شموع، أقلام تُنير في الظلام، ماسكات للشعر، بِدَل رقص، حقائب مدارس، شواحن بطاريات بلا أسلاك.

ترقَّى إلى منصب المدير العام لقسم المبيعات، ثم نائب مدير الشركة الذي ترك كل شيء لإدارته، لم يجد صعوبة في النجاح بمنصبه، فهو يملك خبرات عريضة كونها من العمل بشركات الأدوية الكبرى بالسعودية. لم يعمل بأي شركة منها سوى فترات قصيرة، فقد كان في حاجة دائمة إلى منصة جديدة وجمهور بكر لم يكشف حيله بعد، ما أخفاه حتى عن زوجته، أن خروجه من آخر شركة عمل بها خارج مصر كان أقرب لفضيحة حُوصر فيها بأكاذيبه التي انكشفت كلها مرة واحدة، الحِيَل ذاتها التي كانت محل تباهيه، يرويها من حين لآخر كطرف ونوادر للسامعين، يؤسس بها لسمعته كظريف وذكي حلو الحديث، ولأنه دومًا ما رغب في شاهدٍ على ما أنجز،

كخطأ إستراتيجي في تكوينه لم يتخلص منه أبدًا وكلفه العودة إلى القاهرة مطرودًا. كان يخطط لخمسة أعوام أخرى، تكفل له تقاعدًا مريحًا يمكنه من التفرغ للأدب.

كان حلمه الأثير أن يتفرغ للكتابة كما فعل أستاذه فرج الكفراوي، لكن تلك هي الخطوة الوحيدة التي فشل في تحقيقها، لا، بل الشعر أيضا، ظل تخليه عنه غصة في حلقه، ربما في حياة أخرى، أو عندما يُتم إحكام قبضته على المجد الروائي. في استغنائه عن التفرغ والشعر اتبع حس العقل.

عندما عاد كان مطمعًا للجميع، لأقاربه وأصدقائه، آمنوا أنه يخبئ كنزًا، لا يعلمون أن كل ما جمعه كفل له بالكاد سيارة ووديعة وشقة في مصر الجديدة، صرف على تشطيبها وفرشها أغلب ما حصله عبر نزيف أسود وقاتم بذله من دماء عمره. عرضوا عليه عشرات المشاريع الخائبة وحاصرته طلبات الاقتراض وكل محاولات الاستغلال، فلما فشلوا اتهموه كابنتَيْه بالبخل.

التحق بالعمل في المكان الذي بدأ منه حياته بعد تخرجه في كلية العلوم وقبل سفره إلى الخليج، الشركة الصينية، شركة صغيرة تافهة مقرها قبو تحت السلم، وعندما عاد بعد الانتهاء الإجباري لغربته، وجدها كما تركها، تعُمها الفوضى وقلة الكفاءة والطموح، وهو ما ناسبه، فقد رأى في انحطاطها فرصته للصعود، بعد عامين كان قد استنسخ كل حِيَل مديره السابق، متجاوزا أخطاءه ونجح في تنحيته بعد أن نصب له الأفخاخ، ثم درَّب المندوبين بنفسه ورقَّاهم من عصبة محتالين هواة إلى محترفين.

لَكَم أدهشه كيف كانت تلك المنتجات تفتح له الأبواب وتُلين من أجله القلوب عندما يرسلها كهدايا إلى بعض النقاد والقراء النشطين على جروبات القراءة، فأغلب منتجات الشركة الصينية المتحدة وهمية، فلا أدويتها تعالج مرضًا ولا عجينتها السحرية تقتل الحشرات، الأقلام تنير بالفعل لكنها تجف بسرعة، شواحن البطاريات لا تعمل إلا عند عقد الصفقة، لكن الأعور أدرك أي قوة كامنة في سلعته، فدمج بين أسلوبَي البيع المباشر والتسويق الهرمي الذي منحه اسمًا أكثر مراوغة نظرًا لسوء سُمعته: بيع مُتعدد الطبقات، ففضلا عن مدّه لخطوط البيع مع مئات الموزعين والباعة السريحة ليضمن التسويق في المقاهي والقطارات والمترو وإشارات المرور، فقد صنع خلال سنوات قليلة شبكة مترامية الأطراف، فأسفل كل مندوب من موظفيه العشرة، مائة بائع، تحت كل واحد منهم عشرات أو مئات آخرون. المشترون هم أنفسهم وكلاء للبيع، هكذا يحيد من أثر تفاهة المنتج، فغايتهم هو بيعه والتربح منه لا استخدامه. يقوم بتغيير الشبكة برمتها كل ثلاثة أشهر، قبل أن يكتشف نصف من انضموا إليها أن الأرباح لن تصلهم أبدًا، بينما تتضاعف ثروته هو وصاحب الشركة.

البخل؟ لا يزعجه ذلك الاتهام. لا تعرف زوجته أو ابنتاه أبدا كم ما يملك، لكنه يدخر كل مليم كسبه من أجل مشروع أكبر من أفكارهم التافهة، سِرّه الذي لم يشارك إياه أحد. مشروع سيكفل له ثروة قد تصل إلى مئات الملايين، والأهم أنه سيُنهي كل شكوكه بشأن خلود كتبه بعد الموت، ويضمن له ولاءً أبديًّا من كُتاب أصغر سنًّا، بل ومن

أجيال لاحقة لن تعاصره حيًّا.

دخل إلى مكتبه، فتح شاشة الكومبيوتر على الكاميرات التي تراقب المكان، مُكابدًا ألا يسقط في قاع أحلامه. رائحة المخبوزات والقهوة تطارد أنفه وتشوش حواسه باستعراض قاسٍ لغوايتها، طلب الساعي وأمره أن يذهب ليحضر له قهوة ومخبوزات من أقرب مكان للشركة، ورفض عرضه المتملق أن يُعد له القهوة بنفسه، فهو يعلم رداءة البُن الذي يجلبه توفيرًا للمصاريف.

أقنع نفسه أنه يحتفل الآن بدلا من الحلم الذي أفسده كابوس الأمس، ربما عليه أن يستسلم قليلا، الكافيين سيعيد إليه تركيزه. مُجافاته الطويلة لكل ما أحبه من صنوف الطعام قد تكون هي سبب سيطرة الهواجس السوداء على عقله، قليل من البهجة لن تهد العالم. ربما عليه أن يذهب مساء لكبابجي السيدة زينب.

راجع بعض الأوراق. عاد لمراقبة الكاميرات، كان نائبه هاني الديب يتحدث مع امرأة محجبة سمراء، هزيلة، تشي ملابسها وهيئتها بفقر مدقع، لا بد أنها إحدى البائعات السريحات، جاءت لتتسلم بضاعة.

قرَّب الكاميرا على وجهها بحدس غامض، كانت تشبه المرأة التي شاركته روح الخباز العجوز، لا بد أنه رآها في الشركة عدة مرات من قبل، فتسرّبت صورتها إلى قوقعة عقله كذرة رمل.

غادر مكتبه مُدعيا أنه يراقب العمل. انشغل في حديث شارد مع أحد موظفيه، وجد نفسه مدفوعًا بإثبات الهيبة، وأنه السيد في المكان، لكنها لم تلتفت. انتهت من تسلُّم بضاعتها وانصرفت دون أن

تلقي تجاهه ولو نظرة مختلسة، كأنها تتواطأ معه على تكرار ما حدث في الحلم. همَّ أن يتبعها، لكن الديب استوقفه قائلا:

«أرغب في أن أجتمع معك من أجل أمر هام. مُقترح تسويق مُنتج جديد».

فكَّر أن يسأله عن اسم البائعة لولا أن ذلك سيثير داخله أسئلة لا لزوم لها، ستأتي لاحقًا، ربما يطلب مراجعة كشوف أسماء الباعة.

سأله: «ما نوع المنتج؟».

قال الديب: «الرواية.. وهو مجال أحتاج فيه قطعًا إلى خبراتك الأدبية العريضة بجانب خبرتك في البيع».

«وما الجديد في شيء كهذا؟».

«لا يمكنني أن أشرح لك الفكرة التي تدور في رأسي ونحن وقوف. هل بإمكاننا أن نجتمع في المكتب».

«البائع الجيد بإمكانه أن يفعلها، ينقصك الكثير من التدريب».

«أنا واحد من أفضل البائعين، فلقد تدربت على يد الأفضل».

يدرك زيف هذا التملق، لكنه أعجبه. لقد رقاه بنفسه عدة مرات في ثلاثة أعوام لأنه ذكَّره بنفسه صغيرًا. ذكاء فطري تكسوه غفلة الاندفاع التي تميز البدايات، البريق الراسخ بعينيه كقنديلين مُضاءَيْن بزيت أبدي، بريق على تجليه لا يعكس هول النار التي تعترم داخله، نار الكراهية المقدسة والإيمان كنقش محفور بأعماق قلبه، في أحشائه، الثقة المطلقة أنه سيد مصيره، وأنه يعرف الطريق

إلى ما يريد، الابتسامة المغوية نفسها العالقة بشفتيه كبقايا لعسل أبيض انتهى لتوه من التهامه، حد أن مَن يراها يود لو لحسها بلسانه، أحيانًا تتورد تلك الابتسامة فتزهر معها ضحكة مجلجلة يبيد معها أي مخاوف متعلقة بشأنه كرجل خطر، ذلك ما يجتهد الديب ليخفيه، لكنه لم يتدرب بعد على إخفاء أثره، تنفلت منه لمعة أنياب الوحش الكامن عندما تزداد الضغوط، وكذلك أحشاء خاوية إلا من رغبات مستعارة، لكن في قوة محاكاتها تبدو كحقيقة مبهرة، تخفي كونها حماقات في غاية الإتقان، سطحية بلغت ذروة الاكتمال، أشكال من الزيف والسذاجة مبنية بمهارة.

بعد عام من العمل بالشركة، قرر هاني الديب أن له ميولًا أدبية، ونشر ديوانًا سيئًا هو أقرب للخواطر، مع جُمل منقوشة نقشًا من ديوانَي الأعور المَنسيين، ولا يعرف كيف حصل عليهما.

كان الأعور قد نشر قبل عودته من الخليج ديوانين شعريين بالفصحى، رأى أنه تجاوز بهما محمد عفيفي مطر ومحمود درويش، لكنهما لم يلفتا الانتباه، ولم يتذكر أحد منهما ولو بيتًا واحدًا حتى بعد أن بلغت شهرته الحالية ما بلغت، عزا ذلك إلى غياب حضوره بجسده في القاهرة عندما نشرهما والفساد الذي ضرب جذوره، طغيان وانتصار قصيدة النثر (التي يكن لها كراهية كف عن أن يفصح عنها، كي لا يُتهم برجعية الذوق) والأهم التواطؤ على دفنه بسبب الغيرة مما أسماه «لغة إعجازية لو صعدت إلى النور لفضحت ركاكة وعوار ما يكتبون».

لاصقه الديب كظل مُتطفل في كل ندوة أو أي من الجلسات الأدبية

التي يضطر لها في البارات والمقاهي، يتحدث بحماس البدايات عن الكتب والأدب، بشغف مُدعٍ، يطنطن بجُمل براقة مسروقة من هنا أو هناك، لكنه سرعان ما تعلّم أن يغزل بهما جُملا أقل سذاجة وأكثر إحكامًا، تكفل له أن ينخرط في أي حديث ونقاش.

أضحكه ما فعله الديب وأفزعه، فهو يعلم الرغبة المخفية خلف تملقه، أن يستنسخ خطواته وأفكاره وشبكة علاقاته مُتجنبًا أخطاءه حتى يحل محله، طاردًا إياه من دوائره واحدة تلو أخرى.

رغم أن بإمكانه أن يلوكه بين أسنانه ببساطة ودون أن يفكر مرتين، إلا أنه كلما نظر إلى تموجات جبهته الفتية العريضة التي يعلوها شعر سميك كان يملكه ذات يوم، جسده اليافع، وجد نفسه مدفوعًا لحمايته. كما أنه يومًا ما سيتقاعد من إدارة الشركة. يجب أن يفعل، طبيعة عمله هي نكتة الحاقدين على نجاحه، ولن يجد أفضل من الديب ليخلفه على إرثه الذي بناه بيديه. حاول أن يمنعه من ملاحقته خارج الشركة وأن يبعده عن دائرة معارفه من الأدباء لكن الصفقة التي قدمها لها كانت مغرية، فلم يكن الديب يُعرِّف نفسه إلا كتلميذ له، مُروجًا لانبهاره بكتاباته وعبقريتها، كما أنه أعاد تقديمه كشاعر، وهو الشيء الذي نُسي رغم شهرته العريضة كروائي.

لم يكن في مزاج رائق، فقال: فلنؤجل الحديث إلى وقت لاحق».

ألحَّ الديب:

«لكن فكرتي ستغير كل شيء رأسا على عقب، وتهمك كروائي شهير قبل أن تكون بائعا.. لن تغير السوق فقط، بل فن الرواية

بأكمله».

رمقه بابتسامة هازئة، ثم عاد إلى مكتبه. جاء الساعي بالقهوة والمخبوزات، انتبه إلى أنه كان قريب الشبه من العجوز صاحب الكافيه الذي سرق طزاجة روحه في الحلم. الآن اكتمل حل اللغز.

جاءته رسالة مقتضبة على هاتفه من رقم مجهول: **«حان موعد سداد الدين».**

تحسس مسدسه غريزيًا. الرسالة بلا رقم ظاهر، فلم ينجح في إعادة الاتصال به. قرر أن يتغافل عن الرسالة، لكن قلقًا كخنجر مسموم انغرس في أحشائه، توهجت زهرة النار، كانت تحفر بباطن يده شيئا أشبه بالعلامة.

انكب بشراهة على القهوة والمخبوزات. توردت حواسه الشاحبة وتحسن مزاجه. كأنه يلوك في فمه دماء وجسدًا. نظر إلى الرسالة باستهانة، دعابة سخيفة من حاقد. فكّر، قد يكون شاعرا فاشلا منسيًّا أو شبحًا موتورا لميت. مسحها من هاتفه.

(7)

ليل معدنيّ بارد، قام في منتصفه بيد تحرقها النار وحنجرة يشقها الظمأ.

لم يُسلم نفسه للنوم إلا بعد مكابدة طويلة، فالتشبث بروتينه اليومي هو أمله الوحيد لاستعادة إيقاع حياته المنتظم والقضاء على الأرق وكوابيس اليقظة التي تطارده، إلا أن جسده انهار بعد ساعات

قليلة من وصوله إلى البيت، ليسقط في قاع حلم جديد، رأى فيه نفسه يدور تائهًا ككلب يسير على أربعٍ بحارات بيت طفولته بعزبة خير الله، اليد القابضة التي لا خلاص منها ولو بآخر فاخر في مصر الجديدة.

كان يلهث وراء زهرة النار، القريبة والبعيدة كسراب ينبت وسط تل شاهق من أكوام القمامة، كلما ركض.. ابتعدت، وألفٌ من كلاب الطريق تهرول خلف ما يسعى إليه ويطمعون فيما يطمع. صارعهم بالقوة والحيلة، مثخنا بالجراح الدامية في كل جزء من جسده، خرج منتصرا. واصل ركضه حتى بلغ التل، قمامة من أوراق لا نهائية من نسخ لروايات كتبها ألف ألف أديب منسي، ظل ينبش وينبش حتى تمكن من تمييز زهرة النار، التقطها بفمه، فعاد إلى هيئته الأولى إنسانًا، منتصب القامة، شامخًا، غير مبالٍ بالآلام والأهوال.

تعملقت قامته فصارت جبلا شاهقا وتحت سفحه وقف كل مَن صرعهم متطلعين إلى شموخه، هاتفين باسمه، ركعوا صاغرين، منتزعين حناجرهم، فصارت كلها حنجرة واحدة هائلة، وضعوها أسفل قدميه كقربان، ركبها مكان حنجرته، فأطلق نباحًا اهتز له الجمع، لكن في أذنه بدا صوتًا عذبًا كقيثارة من السماء يصدح عاليًا: أنا الملك حامل زهرة النار.

أحد الكلاب غافلَه، متسلقًا جبل انتصاراته خلسة، ثم خطف زهرة النار من فمه وركض مبتعدا، فانهار مُفتتًا إلى ذرات لا نهائية من التراب.

استيقظ فزعًا، يشعر بألم هائل من آثار جروح وهمية بظهره، كدمة يده صارت نقشًا، لكنه سرعان ما اختفى، رغم ذلك اطمأن، ما زال يقبض على زهرة النار، شاهرًا يقظته كسلاح في وجه الغدر، الأحلام، الأشباح والكلاب.

قام ليشرب، ارتج هاتفه برنين رسالة جديدة انقبض لها قلبه، حدسه يخبره أنها من نفس الرقم المجهول. لم يخطئ، وقد أرسل الحاقد تلك المرة صورا من مسودات لروايات بخط يد فرج الكفراوي، بضع فقرات ملونة تتشابه مع فقرات بعينها من رواياته، ملخصات لحبكات وأفكار استخدمها، معجونة وسط أفكار أخرى تشير إلى كُتاب آخرين، لم يظن أنها تكاد تبين.

جاءته رسالة أخرى «مجرد عينة صغيرة، إذا لم تحضر خلال ساعة سأنشر على الإنترنت باقي ما لديَّ.. تعرف المكان.. الكافيه الذي التقينا فيه ليلة أمس».

حط في قلبه عويل غامض، تأكد من جاهزية مسدسه.

ارتدى ملابسه وغادر المنزل منطلقا بسيارته بلا دليل، سيعرف أين يتوقف، عند شجرة الجميز التي لا وجود لها، والذي حل محلها «كافيه» لا وجود له. انتظر حتى تتجسد الأشباح.

سمع صوتا يهمس بأذنه:

«أنت تعيس جدًّا يا بُني! نمت نوما طويلا، ولكنك لا تعرف الراحة، كطفل ملقى تحت نار الشمس وقلبك المحترق يحن إلى الظل، ولكنه يمعن في السير تحت قذائف الشمس».

يحفظ المقطع عن ظهر قلب، من رواية اللص والكلاب، أما الصوت الهادئ المتأني، ذو أريج العظمة الخافت، الذي يشبه الطمأنينة والهدوء والألفة واللذة المتقشفة، لا الصوت المتعسف والمتغطرس لكل مَن قابلهم من كُتاب، فقد كان لشيخه نجيب محفوظ.

كان يدرك أنها هلوسة، لكنه لن يفلت فرصة لقاء لن يتكرر، سأله:

«كيف بلغت العظمة يا شيخنا؟».

ضحك ضحكته المُجلجلة، ثم قال:

«دخلت الأدب وأنا في نيتي أن أعمل لآخر نفس، نجحت سأستمر، فشلت سأستمر، كنت مُصرًّا ألا يعوقني شيء، الفن حياتي».

«وماذا لو لم تنلْ نوبل؟».

«كنتم ستفكرون مرتين قبل أن تُلبسوني طرطورًا كجُحا وتضعوني فوق حمار لأقول حكمة كتلك».

«أسعى لاستنساخ مسيرتك لا طرطور جحا».

«لن تنجح إلا في شيء واحد».

«ما هو؟».

«استنساخ الحمار».

رنت من جديد ضحكته المدوية، لكن تلك المرة كانت وحشية ساخرة. سرى الغضب في كيانه، وأنكر ما سمعه: أعلم مَن أنت، لست شيخي، بل شبح فرج الكفراوي، شيطاني القديم، يبث أحقاده من

قبره.

«لم أسرق أحدًا». قال لنفسه بزمجرة غاضبة مكتومة، لا ينكر تطابق افتتاحية روايته الأولى «العهد»، مع افتتاحية رواية أستاذه «الأسر». لقد تسلل إليه أثره كما يتسلل الشيطان الذي يجري منا مَجرى الدم.

توهَّجت الكدمة.

بزغ الكافيه من العدم وتلوت في غنج أضواء لافتته: «وما أطال النوم عمرًا..». دخل وقد تصلبت ملامحه على فكرة واحدة أن يفلت العنان للقاتل داخله، ربما قيد ذلك الوحش طويلا مُغذيًا إياه بغضب مكبوت من أجل لحظة كتلك.

كانت المرأة جالسة في انتظاره خلف البار، وقد اكتست طلتها بالبريق الناقص، لقد حظيت بحياة الرجل العجوز ومقهاه وطزاجة روحه، أما هو فلم يحصل من تلك الغنيمة إلا على لعنة وأنف مُغوي برائحة المخبوزات والقهوة، والتي قدمتها إليه قائلة:

«هدية على حساب المكان للروائي الكبير».

لم تفُته نبرتها الهازئة، تذوّق قضمة.

يعرف كخبير كيف زيفت تلك الطزاجة بإتقان، لكنها أبدًا لن تكون الشيء نفسه الذي سلبته من العجوز الذي كان يقف في ركن قصيّ، مثل آخر عمود في معبد خرب، نظيف بشكل شاحب، مهذب بشكل يُرثى له، بائسًا على نحو يتعذر شفاؤه، بعينين شاردتين

وروح باهتة ضائعة، كأنها نسخة رديئة منه، أُعيد انتحالها على عَجل من قِبَل وكالة ترجمة، ينظر إليهما برعب لا يدري مصدره، لكن مرارة عصية وغامضة تتصاعد من أحشائه، ستفسد عليه ما تبقى من حياته، لا يتذكر ما حدث إلا ككوابيس عصية على التصديق ستطارده حتى باب قبره، لن تفوح من روحه الطزاجة مُجددًا، بل عفونة جسد ميت، لكنه سيحتفظ بمحبة رباعيات الخيام لأم كلثوم كخيط أبدي وعلامة سرية تربط بين الصياد وفريسته. أما الصياد فستنتقل إليه قوى ضحيته دون أن تصمد في جوفه طويلا. لا شيء سيبقى سوى شوق عفيّ وعنة قاتلة وشهوة إلى المزيد من الضحايا، كتلك المرأة التي تهدده بما تعرف، رغم أنها مصابة باللعنة عينها.

حرص أن ترى المسدس المعلق في خاصرته، لم يزدها ذلك إلا استخفافًا:

«لعبة الأطفال تلك لن تحميك في شيء».

«ولا تهديداتك الساذجة أيضا».

غرست عينيها في عينيه، حاول أن يستطلع ثغرة واحدة، لكنها نصبتهما كسُورٍ. سألها:

«لم أعرف اسمكِ بعد!».

«حليمة.. حليمة فرج الكفراوي».

«لم يكن للكفراوي ابنة بتلك الاسم».

«لم يعرف أحد بشأن زوجته الأخرى من قرية منشأة بالشرقية إلا

بعد وفاته».

«ما الذي تريدينه؟».

«أن تنفذ بنود العهد.. لقد أعطاك أبي ست روايات جلبت إليك الشهرة، مقابل أن تهبه روايتك السابعة، التي لم يمهله العمر لكتابتها، ستسلمها لي كمخطوطة، ثم تعلن أنك اكتشفت كنزًا أدبيا لكاتب عبقري تواطأت الأوساط الثقافية على دفنه، ستستخدم نفوذك وشهرتك وعلاقاتك، كي تعيد إحياء أبي من الموت».

«لم يعطني شيئا.. لكني لا أتعجب من الأساطير التي تنسجها أحقاد الفشلة ضد الناجحين».

«بل هذا ما وعدته إياه في لقائكما الأخير».

«لم أعده بشيء، كل ما حدث هو أن مقطعا من كتاباته تسلل إلى روايتي الأولى دون أن أتعمد ذلك، هذا كل شيء».

«أتقصد المقطع الذي يتحدث عن مجنون يحلم في يقظته أنه ممسك بزهرة من النار؟».

ابتسمث بخبث وهي تومئ إلى العلامة المحفورة بعمق في يده ثم تابعت:

«أكان ذلك كل شيء فعلا؟ أم أن الانتحال امتد لروح الجنون في رواية أبي «الأسر» بعد أن مزجتها بأسئلة روايته الثالثة «ليلة القدر» وعن الذكورة الهشة، قلدت تكثيفه بطريقة مدرسية، دون أن تعي ضرورته فبات نصًا ملغزًا مبتورًا، لم تتوقف من حينها عن سرقة

أفكاره ولغته وإعادة كتابة جُمله وحبكات رواياته، معتقدا أنك لن تُكشف إذا كان مصدر إلهامك أديبًا منسيًّا، المؤسف ليس السرقة فهو أكثر الأمور شيوعا في الفن، بل إهانة ما سرقته وتحويله من شيء هام إلى شيء مُبتذَل، تدمير لجوهر الفن نفسه».

برزت عروقه وارتعش القاتل داخله يرغب في الإفلات من قيده، أمسكت يده، تحسست الكدمة برقة، فتوهجت زهرة النار بألم لم يطقه، فتذكر المصافحة الطويلة والأخيرة مع الكفراوي، هناك حيث عُقد العهد وخُتمت يده بوصمة السارق التي آمن أنها أمارة مُلك، قالت:

«لا أمل لك إلا في سَداد الدَّين، يعلم كلانا أن الكفراوي لم يكن ضحيتك الأولى ولا الأخيرة، لكنه الوحيد الذي تمكَّن من خداعك بعقد ذلك الاتفاق، رغم كل جرائمك لم تضبط مرة متلبسا، بل حظيت بالحب والامتنان، هذا ما يؤرق ضميرك حقا، أنك محض أكذوبة. سَداد الدين هو فرصتك الأخيرة كي لا تطاردك أشباح ضحاياك، ما أعرضه عليك هو الخلاص».

«لا أدين لفرج الكفراوي أو لأحد بشيء ولم أشعر للحظة واحدة بندم أو بتأنيب للضمير، لقد أحببته بإخلاص، ولم أكن أتمنى شيئا في الدنيا قدر رضاه عن نص واحد كتبته، ورغم ذلك لم يمنحني سوى التلاعب والتشكيك بموهبتي».

«وقد حانت لحظة إرضائه، أهناك تكريم أكبر لكاتب من أن يجد فيه تلميذه شيئا يستحق النسخ؟».

«لم يرني إلا محض لص!».

«بل مزور محترف ومسوق بارع، لا أحد أجدر على تزويره بإتقان أكثر منك.

«والمقابل؟».

«أن تصل إلى السر الذي أعجزك، الذي تحلم به كل ليلة، الروح التي أبدع بها أبي درة رواياته، فاطمة العرافة، رغم كل ما حققته عبر انتحاله، تشعر بأن كل ما حققته دون بلوغ ذلك السر لا شيء».

«وإن لم أقبل؟».

أفلتت يده ثم أطلقت تنهيدة طويلة:

«هذا مبتذل.. أتود حقا مواجهة شبح كاتب منسي لن يردعه شيء عن المطاردة والانتقام».

أطرق رأسه في الأرض، ثم أطلق زفرة مُحملة بكل ما أوتي من عزم. انتفض قائما ثم أشهر مسدسه، صوبه إلى رأسها قائلا:

«سأنجو ولو من الشيطان ذاته، لقد خُلقت لأفعل».

أطلقت المرأة ضحكة مريعة كدوامة لتطلق من فمها رياح عاصفة زأرت في وجهه ساخطة، ثم اختفت.

أفاق على رنين اتصال، كان في فراشه لم يغادره، حبيسًا داخل حلم. أشعل سيجارة وتجاهل المكالمة، كان سمير عبد الرءوف، الذي بعث له رسالة نصية على الواتس آب:

«لا أصدق أنك أرسلت لي هذا.. لكن لا تقلق، سِرّك في بير». لم يصدق عينيه، لقد أرسل إليه الملفات التي تثبت سرقته لفرج الكفراوي.

كيف ارتكب خطأ ساذجا كهذا ليضع نفسه تحت رحمة سمير الذي لن يكتم سره، بل سيساومه بكل ما يحمل من غضب سنوات طويلة من التلاعب؟

جاءه صوت حليمة كصدى هامس داخل رأسه:

«لأن لكل جريمة لا بد من شاهد».

(8)

في درج المكتب المغلق بقفل مفتاحه كالمسدس لا يفارقه، صندوق صغير، به ثلاثة أشياء: وريقة مُتهالكة بها قصيدة ساذجة من سبعة أبيات كتبت بخط طفولي، فلاش ميموري يحمل ست روايات غير منشورة للكفراوي، وموجز قصير لخطته في الترويج لمبيعات الشركة الصينية.

أعوام في الخليج وهو يتتبع أخبار أستاذه، حتى أدرك أن ذاك الذي كان ملء السمع والبصر، صار نسيا منسيا. الدرس الأخير الذي عليه أن يتعلمه منه ألا يسمح لنفسه أن يُبتلع بواسطة الفم الفاغر للنسيان.

عندما عاد بمخطوط روايته من الخليج، آمن أنه يحمل معه العصا التي ستبتلع أفاعي الكتاب الفسدة، رواية هي الأهم، بذل فيها «عصارة دمه وروحه ولغته» كما قال في الحوار الصحفي الوحيد

الذي نُشر عن الراوية حينها، بعد أن ألحَّ على زوجته كي تضغط على صديقتها المحررة بأحد المواقع الثقافية، كي تُجري معه الحوار.

عند صدور رواية العهد نشر الأعور الفقرة الافتتاحية منها على صفحته، دون أن ينتبه إلى أن فيسبوك صار لعبة الكفراوي الوحيدة في عزلة شيخوخته ولعنة نسيانه، وكان يأمل عبر تلك اللعبة أن يستعيد زهوة العمر والإنجاز الذي تبخر من بين أصابعه.

لم يجد بُدًّا من الذهاب إلى منزله في حلوان، رغم صعوبة ذلك على نفسه، كي يطفئ شرارة الحريق الذي هدد العجوز بإشعاله.

عندما بلغ البيت الذي يسكنه أستاذه المنسي، هالَه الفارق بين الحقيقة والصورة في ذاكرته، فالعمارة التي طالما تخيلها فاخرة شاهقة وواسعة، لم تكن إلا مبنى قزمًا ضيقًا من أربعة طوابق، جدرانه متصدعة تتوسل الانهيار وتنشع الرطوبة من شقوقه، مدخله ذو إضاءة ضعيفة مقبضة تشيع فيه رائحة الزنخ والجنون، ويحيطه صمت راكد ومخيف.

في شبابه لم يكن يرى في ولوج عتب ذلك البيت إلا علامة انتصار، طريقًا مفروشًا بالأكاليل وتحُفّه روائح الياسمين، اختصارًا لسنوات طويلة نحو مجد لا يزول وشهرة أبدية. زال السحر بعد أن رأت العين ما هو خارج كهف الأستاذ، كانت كل درجة يصعدها تُشعره أنه يهبط إلى قاع بئر تافهة معطلة إلا من الذكريات المشئومة الميتة.

ضغط الجرس، وضع الابتسامة الوضاءة الودود فوق وجهه، ونصب عينيه كسُورٍ.

فتح الكفراوي بعينين زائغتين، ما زال بهما سيماء خبث قديم، يزداد شيخوخة وعنادًا، شعره مهوش خفيف، لحيته النابتة بيضاء مهملة، كان يرتدي جلبابًا رماديًّا رغم علمه بقدومه، هو الذي لم يره من قبل إلا في أبهى حلة وهيئة، رحَّب به بحذر، ثم قال:

«هل استجبت لنُصحي وتدربت على محو الأثر؟».

«ما زلت أتعلم منك يا أستاذ».

قالها محمد الأعور بوجه تعلوه ابتسامة هادئة بينما يكاد الغيظ والغضب أن يعصفا بروحه. فكّر: لو قتلته الآن في وحدته التافهة ما شعر أحد.

أجلسه في غرفة صغيرة، ثم ذهب ليعدّ له الشاي. كان يملك الشقة المقابلة أيضًا، وقد جعل منها مكتبه ومكتبته الضخمة. كان يصل الشقتين بممر صغير، لا لشيء إلا ليجبر العابر على النظر إلى صوره مع كبار الكتاب وبالندوات وشهادات تكريمه، لكنه باع الشقة الأخرى بعد أن تُوفيت زوجته وسافر ابنه إلى الدوحة.

جاء بصينية الشاي بيدين مرتعشتين وقد اكتسب في عينَي الأعور هيئة شحّاذ.

استمر الصمت لدقائق، قبل أن يقطعه:

«ما أخبار الكتابة يا أستاذ؟».

«أكتب بلا انقطاع. أنجزت روايات كثيرة، بلغت ست روايات».

«غير التي نشرت؟».

«نعم... لكنها لم تُطبع بعد».

«بإمكاني مساعدتك على نشرها، فوضعي الأدبي الآن يسمح لي أن أرد الدَّين القديم».

كان يكذب، وقد راهن على ضعف متابعته لأخبار الوسط الثقافي في عدم تمييز أنه ما زال مجهولا وفي إثارة طمعه كي ينسى أمر السرقة. عرضه لم يزد الكفراوي إلا غطرسة فقال:

«قبل أن تأتي بدقائق، كان يجلس مكانك ممثل دار نشر عالمية، عرض عليَّ مليون دولار لطبع وترجمة أعمالي الكاملة، لكني أخبرته أن المرشح الأقرب للفوز بنوبل، يستحق رقما أكبر، طلب مني أن أضع الرقم الذي أرى أني استحقه، رفضت وأخبرته أني انتظر التقييم الملائم من الدار».

«كرامة الأديب فوق كل اعتبار».

«وقبل بضعة أيام زارني صديقي إبراهيم الكوني، تحدث لساعات عن رواياتي بفم مندهش، فصّص مشهدًا تلو مشهد وحلل جمالياته، قال إني لو كنت في دولة أخرى لصنعوا لي تمثالا في قلب كل ميدان. سألني عما سأفعله بنقود جائزة نوبل التي بات فوزي بها مضمونًا، فقد كان قادمًا من السويد لتوه، قابل في أحد المطاعم رجلا وقورًا، وعندما عرف أنه من أصدقائي المقربين، انهار الرجل أمامه، وأخبره أنه أحد أعضاء لجنة نوبل السرية، وبعث برسالة معه إليَّ: جهز خطبتك أمام ملك السويد، أيها الكاتب الأعظم وامتشق السيف أيها الفارس المخلص لتخلص العالم من الموقوذة والمتردية

والنطيحة».

أشعل الأعور سيجارة أعقبها برشفة شاي، لقد انتهى الرجل. لم يعد هناك خطورة منه. بحث عن طريقة مناسبة للرحيل والإفلات من أسر هذيانه.

«أخبرت الكوني أن جائزتي الحقيقية هي قرائي، وحكيت له عن الطالب الإثيوبي الذي ركب سفينة في رحلة لمطاردة حوت أبيض ضخم مع قبطان مُختل، السفينة تاهت وتحطمت، لكن الطالب نجا بعد أن قذفه النهر إلى جزيرة مهجورة بالمحيط الهادئ، ظل حبيسًا بها ثلاثة عشر شهرًا، كاد أن يُجن، لولا أنه وجد نُسخًا من أعمالي على الجزيرة، قرأها كلها عشرات بل مئات المرات، فأنجته من الوحدة والجنون، وعندما تم إنقاذه وعاد إلى بلده قرر أن يُنذر ما تبقى من حياته لترجمتها إلى 83 لغة حية وميتة و200 لهجة محكية».

«الأدب الجيد لا يطويه النسيان».

ظل يتحدث عن اللاشيء لمدة ساعة. سبَّ كُتاب الجيل الجديد والقديم، ولم يفلت نجيب محفوظ:

«أربعة وخمسون كتابًا.. ليه؟ الموظف!».

انتهز أول فرصة للمغادرة، عند الباب أمسك معصمه قائلا:

«لا بأس لو أعطيتك الروايات. لا يهم الثمن الذي تدفعه دور النشر. الأديب الحقيقي أغلى من أي سعر».

أعطاه فلاش ميموري يحوي رواياته غير المنشورة، قال ضاحكا

إنه تعلَّم ـ أخيرًا ـ النسخ على الكمبيوتر، خوفًا من اللصوص والمعجبين الذين لا يكُفون عن زيارة بيته، كان الأعور يعتقد أنه يهذي بخصوص أنه لم يتوقف عن الكتابة، عند الباب ضغط على يده في مصافحة طويلة حارة، كمَن يلقي إليه بثقل رجائه وأمله. لم يدرِ أبدًا أنها كانت عهدًا يختم باطن يده بالنار.

في سيارته أخذ نفَسًا عميقًا، فرحًا بالنجاة من الخطر وكل هذا البؤس. تأمَّل الفلاش ميموري ولم يصدق. لقد منحه ما هو أفضل من روايات منشورة منسية، روايات غير منشورة لكاتب منسيّ محاصر بين العزلة وهلاوس العظمة في انتظار الموت.

شعر بالشفقة نحوه وداهمه إحساس بالذنب، لكن فكرة عبثية لعوبًا سيطرت عليه تمامًا. كان يبحث عن خاتمة، انتقام أخير من الأستاذ الذي لم يعترف أبدًا بتلميذه. عاد إليه بعد أن اشترى تورتة وشموعًا ولوحًا خشبيًّا، كتب عليه بخط جميل:

«تتشرف هيئة قناة السويس بمنح الأديب العالمي فرج الكفراوي، أول جائزة نوبل مصرية، تقديرًا واعترافًا برواياته التي توازي في قوتها ما أنتجه أدباء العالم وتتواصل مع تراث الإنسانية العميق بندية، والتي وصلت إلى العالمية عبر الغوص في المحلية وعبَّرت بقوة عن بلد الكفاح المُسلّح وتحالف قوى الشعب».

عندما أعطاه اللوحة وقرأ ما بها، واكتست ملامحه بحزن عميق، ظن أنه سيشتمه، وكان مُستعدًّا بضحكة لاهية سيطلقها كضرطة في وجهه، لكنه قال:

«لماذا تأخرتم كل هذا الوقت؟ هكذا لا يحصل الأديب العبقري على نوبل إلا بعد أن يتجاوز حاجته إليها، أفكر حقًّا في عدم قبولها».

اجتاحته الشفقة تجاهه من جديد وندم على تفاهة انتقامه. ساعده في تثبيت اللوحة بغرفة مكتبه، كان الكفراوي فرحًا بها كطفل.

وضع الأعور خمس عشرة شمعة في التورتة كرمز لكل رواية نشرها، أطفأ الشمع، ثم التقط صورة لهما. سِيلفي لروائي منسي بعينين مرهقتين تشعّان بالرضا، وروائي طموح تبزغ العظمة من عينيه كحجرَيْن في مُقلتَي أعمى. أقسم مجددًا ألا يقع في أخطائه وانصرف بنفس مطمئنة.

(9)

لم يتعجل الاطلاع على روايات الكفراوي، بل نسي الفلاش ميموري لأسابيع. لم يظن أن الرجل كان ليترك وهو الغارق في ضلالاته سوى شخبطة وهذيان، لكنه فوجئ أنه كان أمام ست روايات جيدة، رغم أنها كُتبت بسرعة مَن يطارده الموت وتنقصها الدقة ومليئة بالثغرات التي تحتاج إلى المعالجة، كما أنها كانت بالغة الغموض، كأنه ضجر مَن تجاهل القُراء، فلم يعد يُحدث أحدًا إلا نفسه.

بالإضافة إلى الملفات الستة، كان هناك ملف سابع عنون بـ«المشاء العظيم»، لكنه كان ملفًّا فارغًا، وبسبب عطب لم يفهمه، لم يتمكن أبدًا من حذفه. لم ينسخ محتويات الفلاش ميموري أبدًا إلى أي حاسوب، كأنه لو فعل لأثبت جريمته.

في القراءة الثانية وصفها بشكل أفضل: ملخصات ومخططات لروايات مهمة، خلاصة أفكاره عن الزمن، العجز، الجنون، الموت، الجنس، السلطة، الكمال. شخصيات مرسومة باقتضاب حاد كإسكتشات سريعة، بعضها سبق أن تكرر في عوالم أعماله المنشورة، كأنها هداياه الأخيرة المتعجلة إلى العالم، جوهر روحه، أو كما أخبر الأعور نفسه، غنيمة مستحقة لتلميذه الأخير على ما عاناه من استخفاف وتلاعُب وإنكار.

لم يكن ساذجًا ليستعملها كما هي.

لم تلفت رواية «العهد» الانتباه، كانت سيئة، معتمة، شديدة الغموض، مفتعلة وخالية من الروح، وهي سِمات لن يتخلص منها لكنه سينجح في التخفيف من وطأتها عبر ألاعيب حُواة.

كتب روايته التالية «أسر الغزالة» بإيمان تام أن الرب أخيرًا قَبِلَ قربانه ومنحه إلهامًا حقيقيا كذلك الذي كتب به أستاذه درة رواياته فاطمة العرافة، وقد هندسها بما ظن أن الجوائز تشترطه، كما فعل بكل رواياته. تجاهل أن إلهامه مُستقى من قصة لماركيز عن رجل يقود سفينة ضخمة للانتقام من قريته، مع تبديل الوسيلة عبر جيش مهول من الأشجار الضخمة، وبدلا من وباء الأرق الذي يصيب أهل القرية لثمانِ سنوات ويدفعهم إلى النسيان في «مائة عام من العزلة»، أضاع ذاكرتهم لفترة محولا إياهم لحيوانات أعجمية، جعل آكلة الرمل تأكل الطين، حرص أن تكون القرية معزولة ومتخيلة، كبديل لماكوندو، كي يتعرض أهلها لدهشة الحداثة بعد أن منحها البُعد التاريخي، وبالطبع كان أحد أبطالها يملك قضيبًا ضخمًا

مثل خوسيه أركاديو، القضيب الضخم نفسه الذي تكرر في مئات الروايات العربية منذ أن ترجمت تلك الرواية والذي امتلكه فجأة مئات الروائيين، ومن روايتَي الكفراوي «الضفادع» و«ليلة القدر» انتحل الريف وهو الذي لم يعرف طيلة حياته سوى المدينة وكذلك الخطوط الرئيسية والتي كانت تحكي عن قرية تُخفي رغباتها المكبوتة عبر حكايات متخيلة، لكنه جعلها رغبات أكثر خشونة وغرائبية وشذوذًا. لم يفُته أن يغلف كل ذلك بحس الفناء الذي ميز ماكوندو.

أما اللغة فقد انتحل بعضها من الكفراوي، وهي لغة بالغة الاقتضاب والغموض والكآبة، ثم خلطها مع لغة كتب تراثية كان ينبش فيها عن كلمات ملغزة مهجورة تبهر القراء والروائيين وتذكرهم بضعفهم الذين يترددون إزاءه عن الحكم بضعف العمل وافتعاله، مع مسحة شاعرية مصطنعة من أثر محمد عفيفي مطر، الذي آمَن أنه لو استنسخه كشاعر لتجاوزه، لكنه لم ينجح إلا في صناعة نسخة متقعرة منه.

لم تنجح رواية «أسر الغزالة» بالشكل الذي تمناه، لكنها مكّنته من أن يُرسخ قدمه أكثر في الدائرة الضيقة للوسط الأدبي، وأن يُروج لنفسه بينهم ككاتب جاد، وقدمته إلى سمير عبد الرءوف الذي يكبره ببضعة أعوام في العمر ويسبقه في الشهرة والجوائز والأدبية، والأهم امتلاكه لمفاتيح الأبواب المغلقة.

خلط سمير بين مدحه ككاتب وبين اشتهائه. أدرك الأعور ما يحدث لكنه تغافل عنه متلاعبًا به عبر الأمل، لم يجد حلا آخر بعد أن صد

عنه المُجايلون له باب الاعتراف بروايتيه الأولى والثانية التي أقر سمير لاحقًا أنهما بالغتا الرداءة والافتعال، وكما استنسخ أثر مديره السابق في الشركة الصينية المتحدة، اقتفى أثر سمير في كل شيء، مواعيد صحوه ونومه، الأوقات المفضلة للكتابة، الروايات المفضلة، علاقاته الواسعة، لم يترك ناقدا أشاد به في مقال أو على علاقة جيدة به إلا وصادقه، بل تتبع حتى القراء الذين ساهموا في صنع أسطورته كواحد من أفضل الكُتاب المعاصرين واستمالهم ناحيته، وقد سهلت عليه مواقع التواصل الاجتماعي اللعبة، ونفذ عبره إلى دوائر المنح والترجمة، أدرك سمير أن الأعور لا يستهدف فقط أن يحظى بالنفوذ في الوسط الأدبي، بل أن يحل محله في تلك الدوائر وأن يزيحه إلى مرتبة أقل عبر تشكيك واعٍ ومدروس في أعماله وفي شخصيته، يبدأ كهمس عابر ومزحة طيبة ثم سرعان ما يتحول إلى نقيق ضفادع، لكن سمير لم يعرف إن كان الحب هو ما شل قدرته على الدفاع عن نفسه، أم أن إدراكه لما يحدث جاء متأخرا، بحيث صارت كل مقاومة أشبه بالغوص في رمال متحركة.

لم تفز «أسر الغزالة» بالجائزة التي اشتهاها، لكنه نال عنها جائزة تافهة. ألقم الضفادع الكلمات التي يجب ترديدها بالضبط، محمد الأعور أديب كبير مظلوم يستحق التقدير، لأنه أدرك أنهم يريدون شهيدا يعلقون عليه خيباتهم وشعورهم العميق بالذنب. «أسر الغزالة»: هي البداية الحقيقية للواقعية السحرية في الوطن العربي، ما سبقه كان محض محاكاة، ثم كُررت الجملة الساذجة لعشرات، مئات المرات، حتى أصبح لها وقع الأصالة وصعب تمييزها عن الرأي

الزائف، تمامًا كرواياته، التي صار أكثر حنكة في انتحالها، والتي وجدت طريقها ضمن سَيل من ثغاء جميل ومهضوم ناجح، في هذا المضمار هو فنان حقيقي.

يعلم أنه حبيس كابوسه الخاص، وأن كل ذلك سوف يمر ما أن يستعيد رتابة إيقاعه اليومي، هو مَن اختلق الكافيه والعهد وحليمة. أزمة ضميرا لا يشعر بالندم، فالغاية جليلة، ولا تُقارَن أبدًا بالخسارة. إن لم يغامر المرء من أجل العظمة، فستمنحه الحياة بوليصة تأمين مضمونة، لكنه سيظل كلبا منسيا في الأزقة، أو كاتبا منذورا للفناء ولجحيم الفم الفاغر للنسيان، حيث لا مجدَ في انتظاره وكل ما بوسعه للحصول على اعتراف لا قيمة له، هو الترويج مُتذللا لعظمة الآخرين الزائفة، تلك هي المسألة.

نجح في كل ما أراده، بل نجح أكثر في إخفاء غصة رغبته في شيء أهم، إلا عند لحظة واحدة، لحظة النوم، حيث لا شيء ينتظره على وسادة الشوك سوى الحقيقة.

لم تخطئ حليمة عندما ذكَّرته أنه يشعر أن كل ما حققه لا شيء، طالما لم يحصل على سر رواية فاطمة العرافة، درة روايات الأستاذ، قرأها آلاف المرات، حاول كتابة مثلها آلاف المرات، وفي كل مرة كان مَن يرطم رأسه في جدار، ولم يجرؤ على سرقتها كما هي، لأنها أشهر روايات الكفراوي، يحفظها حتى مَن هجروه من تلامذته عن ظهر قلب. كاد أن يقنع بأن يكتب نصًا يقربها ويستظل بظلها، بل كان على استعداد أن يعترف بأثر أستاذه فيها وأن ينسب إليه فضلًا ما، ولم يكن شيء ليسعده لو بلغ السر قدر أن يوضعا معًا على قدم المساواة

والاعتراف.

لا يعلم لمَ تلك الرواية تحديدا التي امتلكت عليه خياله ويعود لتأملها مرارا وتكرارًا! لقد قرأ وفُتن بروايات لا تقارن أهميتها برواية فاطمة العرافة، لكنها ظلت بالنسبة له الرواية الوحيدة في الوجود التي تستحق أن يسرقها ربما لأنها على عكس الأعمال القابلة للخلود، عمل خالد لا يتذكره أحد، وهو أمر نادر في رأيه بين الأعمال المنسية، وتكمن فيها فرصته، أو ربما وهو ما لم يعترف به لنفسه، إن فعلها لحاز الرضا الذي لم ينجح في انتزاعه من قلب الكفراوي.

لم يكن يحلم إلا بتلك الرواية العجيبة، ليلة تلو ليلة، يغمض عينيه، ليتخيل النص الذي حفظه غيبا، ويعيد تخييل عوالمه وتأمُّل شخوصه علّه يقترب من سره، لكن كلما توهم الدنو من السر، أطل العجز ساخرا من أوهامه.

مضاهاة كتاب واحد عظيم، أليس هذا هو كل ما باستطاعة أي كاتب؟ لكن ما الثمن؟ كان في قرارة نفسه يعلم، التخلي عن كل ما حققه، أن يهدم ذاته وما بناه من منجز ليبدأ من جديد، أن يمزق آنية روحه بحثا عن دفقة الدم الكاسحة التي وجدها في رواية فاطمة العرافة، تلك كانت العقبة، المفزعة المستحيلة، الشيء الحي وسط ضباب روايات الكفراوي المعتم، الذي يجعلك ترتجف. لكنها أيضا الفكرة الوحيدة التي تبث فيه الأمل بأن يستريح قلبه ـ أخيرا ـ من مشيه الطويل تحت الشمس.

من عمق الأحلام وشدة اليأس، لم يعد يحلم بكتابتها بنفسه،

بل اخترع في أحلامه مطبعة، كحاسوب كبير، تعيد طحن عناصر الرواية بحثا عن سرها، دفقة الدم التي تحدث عنها الأستاذ عندما كان يخبرهم في جلساته: أنه كتبها في خمسة عشر يوما بلا انقطاع، كأنها أمليت عليه من فاطمة نفسها والتي لم تكن إلا حكاية خرافية تُروَى في قرية منشأة، كانت رغبة فاطمة أن تحيا داخل نص مكتوب، لا رغبته هي ما تحركه للكتابة، لم يكن إلا وسيطا لها وخادما.

كان يظن أن الأستاذ يبالغ فقد اعتاد منه بأن يصنع هالة من الأساطير حول نفسه وطرق إبداعه، وقد تعلم منه اللعبة نفسها بوصفها خدعة تساعده على غواية الشباب الأصغر سنا، المنبهرين بما حققه والساعين إليه.

وضع الفلاش ميموري في اللاب توب، لاهيا ضغط على الملف الفارغ، فوجئ أنه لم يعد كذلك:

«الخطيئة في روحي، هي هذا العدوان بصوره المختلفة على وجود الفن، وعلى قيام هذا الوجود فيما يصنع الفنان من أعمال. وكم هي عديدة صور هذه الخطيئة، وكأنها تستحق جحيما مستقلا، يلقي فيه بالفنانين الذين تستبد بهم الشهوات والرغبات، وليس العمل. أولئك اللصوص والمعتدون على جوهر الفن وطبيعته، كم هناك من كذابين ومحاكين مخادعين وموهومين بالسلطة ساعين وراء الشهرة والتحكم في العواطف الخفيضة للبشر.. هل أنا واحد منهم؟ وهل لا بد لي أن أسرد أسماءهم وجرائمهم، وأن أصنع لهم الجحيم بحلقاته كي أصل إلى

الخلاص كالخلاص الذي حققه «دانتي» بالكوميديا لنفسه؟ وما فائدة الكوميديا الإلهية كلها إن لم تكن قد منحت شاعرها هذا الخلاص؟».

بدر الديب، إجازة تفرغ.

ثم لا شيء، صفحات بيضاء فارغة، لكن كأن يدا شيطانية تنسخ الكلمات بسرعة خارقة حتى بلغت سبعين ألف كلمة من لغة مطلسمة هذيانية تختلط فيها الأحرف بالأرقام بالرموز، ثم عادت إلى الوراء ببطء يائس تشطب حرفًا تلو آخر، لم يتبقَّ منها سوى بضع فقرات:

المسودة الأولى للمشاء العظيم (ملحمة تدور في عوالم أدب خرافي)، تأليف: فرج الكفراوي

تدور الحبكة الرئيسية للملحمة حول رحلة طويلة وشاقة يخوضها الروائي الشهير وعديم الموهبة محمد الأعور بحثا عن العظمة، وتبدأ بنزوة غامضة في كتابة قصيدة ولو عبر سرقتها، ثم تتحول تلك النزوة إلى شهوة مستبدة في اختراق الوسط الأدبي والتربع فوق عرشه مع زوجته كملك وملكة، عبر استغلال ثغرات وشهوات الكتاب المدفونة، أو ما أسماه «خطة الخطايا السبع»..

يفترس الأعور في رحلته عشرات الضحايا، من بينهم مؤلف العمل، والذي لم يكن إلا خطوة تافهة في طريقه.

يخوض بطلنا رحلته بعدة أقنعة، مرة كدون كيخوت ومرات كتابعه سانشو، لكنه يظن طيلة الوقت أن تماهيه الحقيقي هو مع

شخصية عوليس بطل الأوديسة.

سيقسم العمل الذي يمكن إدراجه تحت أدب الحكايات الخرافية إلى كتابين قصيرين سيضمان معا تحت عنوان «المشاء العظيم»..

اسما الكتابين مسروقان من عمل لنجيب محفوظ وآخر لكافكا:

الكتاب الأول: همس الجنون وفيه نرصد اختلاط الحقيقة بالوهم في عقل الأعور. والكتاب الثاني: المسخ، حيث تختفي الحقيقة ولا يبقى سوى الجنون وينتهي بانتحاره.

فهم أن تلك هي الرواية السابعة التي يطلب الكفراوي أن يكتبها باسمه، ولا يقدم له أكثر من حبكة أولية ساذجة عنها عليه أن يطورها بنفسه لأجله، أن يسجل بيديه اعترافا مكتوبا بجرائمه وضعف موهبته، ما يريده الشبح المأفون أن ينتحل أكثر أعماله أصالة: حياته. أن يهبها إليه مرتين، مرة عبر كتابتها باسمه، والثانية عبر قتله لنفسه.

تذكَّر ما قاله له أحد تلاميذ الكفراوي مُحذرًا قبل أن يكف عن حضور جلساته:

«هذا الرجل يسرقنا كطفيليّ، يمتص دماءنا الشابة ليظل شابا إلى الأبد، حكاياتنا الرائعة المستقبلية، يزرع في عقولنا طرقا مضللة، موهبته ضئيلة، حرفته قوية، لكنها تفتقد للحياة، مدرسية ككتب مائة طريقة وطريقة لكتابة رواية، قاسٍ، مستبد، لا وجود له، ضوءُه الحقيقي هو من اتكائه علينا». لم يصدقه حينها، وطالما حاجج

الجميع برواية فاطمة العرافة التي لن تكتب إلا عبر موهبة عاتية.

أغلق اللاب توب. انتزع الفلاش، رطمه بالحائط، هرع إلى صندوق أدوات نجارة، التقط شاكوشا، حطم الفلاش إلى عشرات القِطَع وتخلص منه في سلة القمامة، ما إن عاد إلى مكتبه حتى وجده بمكانه في الصندوق، مستكينا في هدوء ساخر. فكر في أن يحرقه، أن يقذفه في النيل، أن يدفنه كعمل سفلي بحفرة عميقة، لكنه أدرك أن كل محاولات التخلص من الشيطان القابع في صندوقه مصيرها الفشل. فذلك الكابوس من البداية خارج عن سيطرته.

(10)

ضغط جرس الباب، فتح له سمير عبد الرءوف بابتسامة حنون تدّعي الغفران لجحود وتلاعب سنوات، وتخفي نشوة التلذذ بامتلاك لجام المراوغ الذي عذبه طويلا، لكن الابتسامة سرعان ما تحولت إلى شهقة مكتومة مرتاعة، من خيبة الأمل لا الرعب.

منذ المرة الأولى التي التقاه فيها، وهو يعرف ما هو كامن أسفل جلد اللطف وعباءة الدماثة، يدرك أن خلف الزحف الناعم المتربص والخسيس ثعبانًا ألمعيًّا يغوي ويخون، وحشًا صريحًا غير مخاتل، ها هو يفصح عن نفسه أخيرًا. لم يكن كما تخيله. كان وجهه بالغ الشحوب والإرهاق، بفم نصف مفتوح ولسان يلهث، وفكين يتكوم في جانبيهما أثر لعاب وسعار عميق ضروس، وعلى جبهته عرق مسود بوحل الطريق، جفناه تنتفخ تحتهما جيوب متورمة، تثقل عينيه نظرة جاحظة زائغة، شعره الناعم الأنيق الذي طالما صففه

بطريقة تحد من آثار فقدانه لغزارته عند قمة الرأس، صار مهوشا طويلا من الجانبين، كاشفًا صلعته ومسدلا فوق أذنيه بطريقة جعلته أقرب لخرتيّ مفلس غدرت به الأيام.

لم يتصالح عبد الرءوف أبدا مع حقيقته كمِثليّ؛ لذا لم يشتهِ مِثليًا بحرارة أبدا، لَذّته معلقة بشص المستحيل والممنوع، أن يخترع الرغبة أو أن يكتشف منبعها الخفي عند رجل مغاير تفاجئه الخرائط الغامضة والمعقدة للذة، الأغوار التي لم تُسبر بعد. كلما زاد صبره، لوعته، ذُله، كلما تجذر حبه في الروح، وتعاظمت في ذهنه الجائزة، لكن ما اشتهاه في العمق من الأعور كان افتراسا خرافيا لا هوادة فيه، أن يمزقه بحثا عن سر اللذة الغائم، العَصيّ على الإمساك كذبابة تئز، تلدغ، تطير. لكن أيملك ذلك المنهك، المستنزف أن يهبه شيئا؟

دفعه الأعور بغلظة أسقطته أرضا، دخل، ركله بضع ركلات، فتأوه واستغاث، أغلق الباب بعنف فارتج قلبه وارتجفت كل عضلة بجسده، تذلل وركع بحثا عن نشوة تخترق حُجب السماء كالشياطين لتعود بالسر المطارد بالشهب واللعنات، لكنه لم يجد سوى السراب. كان الافتراس في خياله مجازا روائيا، لكن الواقع كان وحشا تافها معدوم الخيال، خطمه ليس سوى ماسورة مسدس، أنيابه ليست إلا رصاصة رخيصة. أي غول هذا؟!

لم يتبقَّ من أحلام النشوة سوى موت تافه، قال في محاولة بائسة لدفعه:

«لن أخبر أحدًا، لم أخذلك يومًا».

«لن تفوت فرصة لثرثرة أو نميمة، أو لعلك سربت ما تظن أنه ليس سوى تلفيق من كاتب حاقد إلى لجنة الجائزة كي تحرمني منها».

«أنت مخطئ، ألم تفهم بعد كل تلك السنوات عمق ما أكنه لك من محبة وما ضحيت به من أجلك».

«بل أنت الذي لا تعرف الثمن الذي دفعته جزاء خوض الطريق، لن يقدره أمثالك أبدا، لأنكم أتفه من تقديم قربان واحد عظيم».

«أقسم بحبي لك».

لم يُجبه إلا بفوهة تلتصق بجبينه.

أغمض سمير عينيه، وصار كله أذنا مرهفة تترصد دويّ الموت، تكور بجسده النحيل على نفسه في وضع جنينيّ وواصل الارتجاف وتمتم بالوعود، كل الوعود، حتى إنه أقسم أن يهبه ما لم ينشر من رواياته، سمع قدح الزناد، فاصطكت روحه، لكن لا شيء عبرَ أذنه سوى الجعجعة التافهة لمسدس فارغ من الرصاص.

ضحك الأعور في هستيريا، ثم ارتمى على الأريكة كمَلاك ساقط:

«لم أعمره أبدًا».

قال سمير الذي خلط كلماته المتملقة بنهنهة هشة تقاوم طوفان بكاء عارم:

«لأن ضميرك لن يسمح لك بأن تقتل».

«بل لأن لا شيء بإمكانه أن يردعني عن أن أفعل».

بحركة أنيقة عدل سمير خصلة وهمية في مقدمة شعره الذي يعاني الصلع، وبأصابعه الأرستقراطية التي لم تعرف الشقاء التقط منديلا كفكف به دموعه، كان يعرف أن لمسات بسيطة كتلك، تذكر الأعور بوضاعة منشئه مقارنة بأسرة سمير الضالعة منذ العهد الملكي في شئون الحكم والمشهد الثقافي، جدوده كانوا وزراء وحكامًا ورؤساء تحرير صحف وأعضاء في مجمع اللغة العربية. حقائق يحاول إخفاءها مع حرصه أن تطل بذيولها، كاختياره للسكن في شقة صغيرة ذات أثاث بسيط، باستثناء مرآة فخمة تتوسطها ورثها عن عائلته.

انتصبت قامته القصيرة ذات القوام الهش، تحرك بخطواته الرشيقة كأمير في حفل باتجاه المرآة، عدل من هندامه وتأمل صورته بهيام سيُغضب صاحبه لا شك، لكنه كان يأمل أن يوقظ وحشا حقيقيا تلك المرة، أن يؤجج الحقد مخالبه وأنيابه. قال دون أن تلتفت عيناه عن مرآته:

«إدانة المنتحلين أمر شديد الحماقة والتعنت حقا، بل يمكن وصف تلك الإدانة بأنها منتحلة. كيف يدينون ما يُدان له؟ عبره تكونت خبراتهم، وعرفوا أصواتهم. لولاه لعمَّ التيه، لم تكتب رواية أبدا إلا عبر انتحال ما سبقها».

ناداه الأعور بإشارة آمرة كي يستلقي بجواره على الأريكة، امتثل، تكور داخل ذراع حنونة مرهقة، حاول أن يستدعي كل ما تخيله في الليالي الطويلة التي حلم فيها بذاك الوصال، ترك أنامله الغليظة تعبث في خصلات شعره وتتحسس قفاه، أغمض عينيه عندما لثم

ثغره، اللذة حاضرة، لكن أين سريان الكهرباء وسوط الصاعقة؟ هل يهضمه ذلك البطن؟

لم تكن قُبلة الأعور الأولى لرجل، فقد جرب كل شيء في مراهقته وشبابه، ما انكشفت له جدته وهو يستسلم لما راوغه طويلا كان شيئا آخر. كل ما يعرفه عن نقاط ضعف وثغرات النفوس البشرية، لم تكن إلا حجابا منعه من الفهم والمعرفة، لم يكن سر صاحبه في القدرة على فتح الأبواب المغلقة عبر ادّعاء التذلل والخنوع، ولا الصلات التي كفلتها له نشأة أسرته، ولم تكن شهوته هي ثغرة حصنه. جوهر روحه الحق: هو أصالة الرغبة. الشيء الذي جبن عن رؤيته كي لا يلامس حقيقة ذاته أنه مخلوق بلا رغبة، لكنه لم يكن أبدا خاليا من الأمل في أن يداوي ذلك الخواء باشتهاء رغبات الآخرين، تقمُّصها، مُحاكاتها، ثم يتفوق عليهم جميعا، هكذا انتحل الرغبة في القوة، الأدب، الصداقة، الحب، التمثيل فوق خشبة مسرح، لا ينجح إلا في تحقيق انتصار ما، يدفعه إلى الضوء قليلا، يعنون تلك الرغبة باسمه لدقائق، لسويعات، لأيام، وربما لسنوات، لكنه كان يعلم أن مصير كل انتصاراته هو النسيان، لم تكن مسألة سرقة فكل الأدباء يفعلون، بل حقيقة عجزه عن امتلاك رغبة واحدة أصيلة، كان سلاحه الوحيد أمام الهزيمة المحتومة هو الإغراق في الإنكار، تضخيم مدى الانتصار وغبن الأعداء لما أنجز، يخترع حكايات عن خوفهم، بانتحاله لما تمنى أن يكونه، ينتقم مما لعن به، انتحاله هو فنه الذي سيبرع به، تمرده الثائر ضد الإله نفسه.

هل تنتقل إليه من سمير أصالة الرغبة؟ لكنه لم يعرف إن كانت

روحه لها من القوة إن حصل على ما اشتهاه أن تتحمل جوهر صاحبه أم أنها ستدمره؟

بكى بعمق خوائه، وارتجف بدنه من الرعب. اعتصر جسد سمير ثم سأله:

«هل تؤمن بالأشباح؟».

دفعه بغلظة لم يعتدها منه. قام، نفض شيئا وهميا عن ملابسه ثم نظر له باحتقار:

«من فضلك غادر منزلي حالا».

«لكني أريدك».

«لقد فقدت كل رغبة بك.. لا شيء مُعقد في الأمر».

فعل الأعور ما اعتاده في تلك الظروف، قدم صفقة:

«سأفصح لك عن أكبر أسراري، ادخرت أموال سنوات من العمل والكفاح والعرق، من أجل مشروع ضخم وطموح، لا أجد شخصا أفضل منك لمشاركتي فيه، أنا بالمال وأنت بالخبرة والإدارة».

«لا خبرة لي بالمشاريع التجارية.. فأنا على عكسك مجرد كاتب».

«المشروع له علاقة بالكتابة، دار نشر كبرى، دار كونية تخترق الحدود، لها مكتبة في كل ضاحية بالعالم، سنسميها مكتبات الذاكرة والعدم».

«دار نشر! يا للخيال!!».

«المشروع الحقيقي ليس في دار النشر، بل في مطبعة ليست كأي واحدة، بل ماكينة جبارة، قد تطلق ثلاثين كتابا في عشرين دقيقة، سنطبع ملايين النسخ من الروايات المكرورة للكُتاب المبتدئين، وبعد أن نجعل منهم روائيين مرموقين عبر دار النشر، سنحصل على ولائهم للأبد، حتى بعد أن نموت سنضمن الخلود عبر صفقات كتلك مع كُتاب جدد».

لم يعرف لمَ تحدث بهذا اليقين عن فكرة لم تغادر قاع أحلامه حتى وإن ادخر لها أغلب ما ربحه، ولماذا لم يخبره عن هدفها الرئيسي. إذا كان سيمنح الكُتاب المبتدئين نُسخًا مقلدة من الروايات، سيحصل في المقابل على لمسة الحقيقة في أرواحهم، أملا في أن يصل إلى الروح التي كتب بها الكفراوي روايته فاطمة العرافة.

لم ينبهر عبد الرءوف بعرضه، بل أجابه ممتعضًا:

«مطبعة!! لقد تجمدت أفكارك مع العمر، هاني الديب، نائبك في شركة النصب المتحدة التي تعمل بها، عرض عليَّ الفكرة ذاتها، لكن طريقة تنفيذها ونتائجها ستكون أفضل وأسهل وأقل كلفة».

«لا يفاجئني أن يسرق أفكاري، لكني لم أخبر أحدا سواك».

«تعلّم من أستاذه، اقتفى أثرك، لكنه على عكسك ما زال على استعداد أن يغرس أنيابه في جسد العالم دون ذرة ندم، لم تُلطّف جوائز الطريق من جوعه.. ولا شبابه».

«ما الذي اتفقت عليه معه أيضًا؟ إبلاغ لجنة الجائزة».

«أية جائزة؟».

«جائزة الدولة التقديرية للآداب، لقد اتصلت بي مؤكدًا البشرى».

«لأخبرك عن فوزي بها ولأطلب منك أن تشاركني الاحتفال تلك الليلة، لكنك رفضت».

«كذب».

«لا أعرف من أين تستلهم ذلك الشعور بالاستحقاق، لقد نشرت ست روايات ابتلعها النسيان، لم يدم بريق أي منها إلا أشهرًا قليلة، عبر مساعداتي بالطبع والتي تسميها مع زوجتك، الكاتبة الجيدة على عكسك، خطة تسويق معقدة».

«زوجتي ليست كاتبة.. لم تكن يومًا».

«يا للقرف!».

توجه سمير إلى باب الشقة، فتحه وأشار له بحسم أن يخرج. تكوم مزيج من غضب ورغبة لا تقهر في رأس الأعور، صفع الباب في عنف، لن يغادر كي يعيش ما تبقى له من عمره بغصة عدم حصوله على جوهرة تلك الروح المدفونة تحت طبقات من روث وسموم الأوساط الأدبية، حيث يكف المرء عن ملامسة حقيقته وجوهره لصالح لعبة الأقنعة وتعجل الثمرة، لا يحق لذلك البائس أن يرفض غوايته بعد أن أذل نفسه بعرضها صراحة.

أمسكه من ذراعه، فلما قاوم صفعه، ركله ومزَّق قميصه، جرجره إلى غرفة النوم، وضعه على الفراش، استسلم سمير تمامًا، لم يتوسل

كعادته، بل واجهه بنظرة خاوية من أي تعبير إلا من ازدراء عميق لا يمكن زحزحته، يده تركت مكامن اللذة، لتضغط على رقبته بغية خنقه، حسنا إن كانت تلك هي الوسيلة لاستخراج السر.

كاد أن يقتله لولا أن رأى حليمة تجلس بهدوء وخفة الأشباح على مقعد في ركن، تدخن سيجارة مشتعلة لكن بلا دخان، وتبتسم، كأنها تستمتع بما تراه. أرخى قبضته، فر سمير بعد أن بصق عليه إلى خارج الغرفة، جلس الأعور مكانه ذاهلا للحظات، وهو ينظر في وجه حليمة، أتاه صوتُ سمير يتقيأ في الحمَّام.

«لم أكن لأفعل». قال لحليمة.

أطلقت ضحكتها المريعة من جديد واختفت. لا يعلم إن كان حضورها كشاهد هو ما أنقذه من ارتكاب جريمة قتل، أم حس العقل.

خرج من الغرفة، رأى سمير وهو يرتجف ويحمل بيده الطفولية المرتعشة سكينًا يهدده به إن اقترب.

غادر دون أن يتفوه بكلمة.

(11)

في الخارج كان الدوار يهزأ بخطواته ولا يفصله عن السقوط إلا حجاب هش، تحامل على نفسه كي يصل إلى سيارته، مستندًا على أعمدة وهمية في الهواء، الشوارع تفر بسرعة صاروخية، حاملة ألف سيارة إلى القيامة، وألف روح إلى الشمس المهيبة بمنجلها المهووس بالحصاد. يداه ما زالتا ترتعشان ولا شيء يراه يثبت في مكانه، كأن

العالم ينسكب مهشمًا من عينيه.

بلغ السيارة، كان غطاؤها الأمامي مشوهًا بخدوش عميقة ارتكبتها يد حاقدة، المساحات محطمة، حروف غامضة منحوتة بها وعلى زجاجها المتصدع بحجر رسالة تهديد:

«اصدع واقترب». نظر في اتهام إلى الشمس، فأجبرته على أن يشيح بعينيه.

دلف إلى سيارته. جلس دون أن ينطلق بها ليصفي ذهنه ويفكر في خطوته التالية، تحول الهواء الساخن إلى جلاد نشط، أغلق النوافذ وفتح التكييف لكنه لم يلطف من ضباب أسفه العميق ولا الوحشة التي تقبض على روحه التي طالما كانت عامرة بأُنس الأماني العظيمة والإيمان.

الزحام من حوله ليس إلا خلاء شاسعًا ومُخيفا كأن لا خلق سواه، وكأن الكون برمته قد استسلم لخذلان ندوة فارغة.

ندوة فارغة، أي أسى! هذا شيء أقسم قبل سنوات أن يفعل أي شيء كي لا يتعرض له.

لا ينسى ذلك اليوم، بل يضع مذلّته دومًا صوب عينيه، عندما طبع على حسابه ديوانه الشعري الأول.

كان رديئًا وبائسًا، لكن آماله حينها كانت شديدة الطموح والتحديد: أن يصير ملكًا. كان يسير مستشعرًا ضراوة ذلك في قلبه، وأنه خلق به كهبة ونبوءة. مُنتصر أبدي، لأنه ببساطة وتحديد أشد: هو. لولا

ملامة الخلق لصرخ: أنا ملك مؤجل، عرشي في عماء، ومملكتي ليست من هذا العالم، لكنها ستصير، طواعية أو كرهًا، سأرغمكم على رؤيتي.

يومها ظل جالسًا في المكتبة الضيقة يدخن بشراهة وينتظر توافد شعبه من القُراء لإعلانه ملكًا، يقيم العدل وينصفهم بمحو الكُتاب الذين نالوا الشهرة دون وجه حق، وتعليق رءوسهم على أعواد المشانق وأبواب البارات والمقاهي، مباركًا بقوة الكلمة على المحو ونار الضغينة المقدسة.

مرت ساعة تلو ساعة ولم يأتِ أحد سوى كريمة.

هبط إلى قاع اليأس وكان حالكًا كلُجّة مظلمة، أشفقت عليه كريمة ولطفت غضبه. أجرت عدة اتصالات تلفونية، سألها عما تفعله، فأجابت:

«سنُقيم ندوة».

ما هي إلا نصف ساعة حتى حضر عشرة من أصدقائها وعلى رأسهم ناقد، اشترى الجميع نسخًا من الديوان، ليتأكد حينها من غرامه بكريمة.

كان قد تعرف عليها بعد إصدار كتابه الأول، في كافتيريا بالأوبرا بموعد اللقاء الأسبوعي لجماعة أدبية مغمورة، وكانت حريصة على الالتزام بالحضور لتستمع وتلقي مثل الجميع بـ «أشياء كسيرة، تجمع بين الخواطر والتدوين ورثاء العالم بأصوات مستعارة من آلام افتراضية أو كتابات سابقة تأكدت قدرتها على النجاح وإثارة

الدهشة» حسب وصفها الذي كتبته بعد سنوات في مقال ذاتي بموقع نسائي، تقول:

«في ذلك اليوم قابلت زوجي محمد الأعور، الذي صار روائيا كبيرا.

لا أبالغ إن قلت إنه بزغ من العدم، لا أحد من الوسط الأدبي قد سمع باسمه، وكنت في ذلك الوقت، أعرف عبر المدونات والتردد على الندوات، أغلب الأسماء الصاعدة، سواء التي صارت بعد أقل من عشر سنوات نجومًا يُشكلون مشهد الكتابة، أو استسلموا للنسيان أو هجروا مسألة الكتابة برمتها، عرفت أنه كان أيضًا يملك مدونة، لكن في العصر الشهير للمدونات، لم يلفت أنظار أحد كان اسمه الافتراضي: عوليس.

كانت أيامًا حلوة وندية حيث يكفي مصفق واحد كي يحظى المرء بشيء من السكينة والرضا، ولم نكن نعلم أننا في اللحظة عينها التي سنكتشف فيها آلامًا حقيقية، سنصاب بخرس هائل ومريك، لا أعرف إن كان مصدره هول الفهم أو العجز عنه، أم لانسداد حناجر أرواحنا بآلاف الأصوات الكاذبة التي حاولنا أن نكونها. ما يسمونه النضج قد لا يكون أحيانا إلا حشرجة، نفقد فجأة ذلك الخيط الرفيع بين التعلم من كُتاب عِظام، وبين أن نمثل أننا نتعلم من كُتاب عِظام.

قدَّم الأعور نفسه كشاعر أصدر ديوانه الأول، مُفسرًا سبب الجهل به باضطراره للعمل في السعودية كمندوب بإحدى شركات الأدوية، فعلها بصوت هادئ رزين لا استعراض فيه، رغم أن إصدار كتاب، حتى لو كان لغوًا خالصًا وعلى حساب مؤلفه في تلك الأيام كان

حدثا بالغ الضخامة نعامله بقدسية واحترام. أعترف أني لم أفهم الديوان، لكني فُتنت بلغته المبهرة وتراكيبه الغامضة.

أول انطباع كوَّنته عنه أن ما يخفيه خلف التواضع هو رجل جسور لا يهاب شيئا، ولقد خشيت تلك الفكرة في البداية، وعينته كشخص خطر، حتى إني تقنفذت في مكاني، لكن ذلك لم يمنع أن أرمقه خلسة دون أن يراني. في تلك الآونة، كنت هشة، يتيمة، أمي تكافح الزهايمر وحجابي الذي خلعته لاحقًا يقاوم وسوسة رغباتي ويكبل تورد طموحي وبذرة روحي. ولم أعرف أبدا أنه قرر في اللحظة عينها أني سأكون زوجته. هذا هو محمد الأعور الروائي الكبير: إرادة عظيمة لا يثنيها شيء عما ترغب به، كان ذلك بالضبط ما ينقصني، لذا وقعت في غرامه».

لَكَم أغضبه ذلك المقال، ورأى فيه فضحًا ساذجًا على هيئة مدح لكل ما يسعى لإخفائه، كما زرع في نفسه أولى بذور الشك أن سذاجتها ليست إلا ادّعاء، وأن ما تطمح إليه هو التمهيد لقتله ببطء عوضًا عما تظنه عمرها المهدور على سفح عظمته.

تصفح الناقدُ، الذي أتت به كريمة لأداء مهمة عاجلة، الديوانَ في دقائق معدودات، ثم جلس على المنصة وتحدث بقوة وطلاقة وبلاغة عن عمل لم يقرأه أحد، وشاركه الحضور الحماس والأسئلة.

بعد انتهاء الندوة التقطوا الصور التي توحي بأن جمهورًا كبيرًا تكدس في القاعة.

قال الناقد قبل رحيله:

«صورة، خبر، ندوة، حوار، مبروك، أنت كاتب».

«ألتقط الصور في الندوات لأُمتع أصدقائي».

عندما انصرف الجميع، استبقى كريمة في كافتيريا المكتبة.

لم يتخطَّ إعلان الغرام بينهما سوى التلميحات والإيماءات واللغة الغامضة والرسائل المبتورة الناقصة، فاجأها:

«ستكونين زوجتي».

«يا لكَ من مغرور.. أنت لم تعرفني بما يكفي».

«أعرف ما أريد من النظرة الأولى، وقد رأيت ما يكفي لأقرر».

«وماذا رأيت؟».

«عينين مُدهشتين».

ابتسمتْ بخجل. تابع:

«ليستا بديعتين، لا تتسمان بالاتساع ولا حور بهما، ولا يشبهان في شيء عيون المها، أو أي من تلك الصفات التي يتغنى بها الشعراء، بل عينان عسليتان عاديتان ضيقتان».

غضبت وكادت أن تغادر لولا أن قال بنبرة يشنقها الغرام:

«لكني أدرك سرهما، ما أن يتمعن بهما أحد، حتى يدرك شيئًا ما في ذاته، يلمع كشهاب خاطف، إنهما مرآتان صافيتان، يرى فيهما المرء جوهره، على قدر ما يبدو ذلك مخيفًا إلا أنه سر جاذبيتهما وغوايتهما».

كان ما قاله ساذجًا، لكنه كان صادقًا أربكها وأحبت كل حرف به:

«وما الذي رأيته في عيني؟».

لم يخبرها أنه رأى جوهره كمُنتصر أبدي. قال باقتضاب:

«الإيمان بنفسي».

«هذا ظلم.. أنت تنظر في عينيّ فترى نفسك، وأنا أنظر في عينيك ولا أتمكن من سبر أغوارك، كل ما أشعر به أن ما تخفيه أعقد مما يظهر على السطح».

«ما حاجتكِ إلى معرفة ما تقوله عيناي، إن كنت قد أفصحت بما يقوله قلبي؟».

لاذت بالصمت، احتضن يديها الرقيقتين. قال:

«لن نتزوج فقط يا كريمة، بل سنقلب كل شيء رأسًا على عقب».

لم تفهم، لكنها منذ تلك اللحظة صارت شريكة لا خصمًا.

تابع:

«سأخبركِ بما رأيته في عينيكِ حقًّا، رأيت نفسي ملكًا ورأيتكِ ملكة شجاعة وذكية تقاسمني العرش لا مجرد زوجة تحيك شِرزًا لطفل».

كان يشير بذكاء إلى تدوينة صغيرة كتبتها تعبر عن رعبها من كابوس يراودها دومًا أنها تعلق في حياكة شِرز لا تنتهي منه أبدًا.

صار على يقين أنها ستكون زوجته وحبيبته، لا لثقته بنفسه تلك

المرة، لكن من أجل ذلك الوعد الخافت والحزين في عينيها كزهرة بنفسج.

كانت كريمة شريكة لا خصمًا في الخطة التي أعدها لنفسه عندما عاد من الخليج لاختراق الوسط الأدبي مستغلا هشاشة أعضائه، وقد أطلعها على أغلب أسرارها، بعد أن تخمرت برأسه طويلا تحت سوط الشمس والغربة، مستغلا في ذلك فراسة فطرية في إدراك نقاط الضعف فيمن أمامه، وتحويلها إلى صالحه، فالكُتاب هم أسهل مَن تُخترق أرواحهم. كل ما عليك أن تفعله هو أن توقظ شيئا ما داخلهم، شهوة مدفونة، غرور تافه، حسد أبله، أوهام العظمة والاضطهاد، نرجسية هم بالأساس مستعدون لها، عداوات حمقاء تستهلكهم. بلى.. حيواتهم بتلك التفاهة، مؤخراتهم تجلس فوق فوهات غير آمنة، يفتقرون إلى المحبة والاعتراف وتغرهم الكلمات الحلوة والزائفة ويقوض الذم ممالكهم الهشة، ويعلمون علم اليقين أن كل ما يُنتجونه قد يكون محض قصور من رمال، قد تقذف بها نزوة ريح، الثغرة المكشوفة للجميع التي لم يتهاون في استعمالها.

لم تنكث كريمة بعهدها بينما لم يفِ هو بما وعد، ألَّا يحولها إلى مجرد زوجة، فتلك التي لم ينشر لها كتاب واحد، كانت أكثر شهرة منه وأكثر نفاذًا وسط الكاتبات والكُتاب ومُقدمي البرامج والصحفيين المؤثرين فقد عاصرت بداياتهم، ولم تبخل بشيء لمساعدته بما تملك، سيذهب إليها معتذرًا عن كل ما سلبه إياها كي يحقق انتصاره الكبير، إن كان هناك ديون يجب أن ترد فليس إلى شبح كاتب مأفون. أكان ذلك ما يحاول فعله مع سمير؟ ربما هنا

يكمن خلاصه من عهد الكفراوي.

سيفعل، لكن بعد أن يذهب إلى الشركة ويقطع دابر اللص الخائن، قبل أن يصبح غولًا.

الكتاب الثاني

المسخ

تأليف جماعي من جوقة

الذاكرة وكورال النسيان

وصل إلى الشركة الصينية المتحدة، لم ينتفض حارس العقار كما اعتاد من أجل تملقه بالتحية أملًا وطمعًا في قرص فياجرا أو شيء تافه من منتجات شركته، بل رمقه بالنظرة المرتابة التي تقطر ضغينة وشكًّا والتي يصوبها كل حارسي العقارات نحوه.

تجاهله كي لا يحيد عن الهدف، رأس الخائن. ما إن يفرغ منه لن يستمر ذلك الفلاح الجلف بالعمارة ولو ليوم واحد.

لم يستقلّ المصعد، بل نهب السلالم. كان باب الشركة مغلقًا، جرب مفاتيحه، لم تعمل، ضغط الجرس بعصبية عدة مرات، لكن لا مجيب.

بدا له تصميم لافتة الشركة وألوانها أكثر فجاجة واستعراضًا رغم أنه التصميم عينه كما تخيره، مبتذلا عن عمد، كي تشق منتجاته طريقها بيسر وسط جمهورها المستهدف.

كيف لم ينتبه سريعًا إلى ذلك التغيير الطفيف الذي يقلب كل شيء رأسًا على عقب، فأسفل اسم «الشركة الصينية المتحدة» أضيف السطر التالي:

«لمنتجات الرواية وخدمات ما بعد البيع.. إدارة هاني الديب».

متى؟

فُتح الباب أخيرًا، استقبله الساعي الذي ليس بساعٍ، بل بائع حلوى عجوز، وعلامته نظرة شاردة وروح أقرب لنسخة أعيد طحن عناصرها برداءة من أخرى طازجة، حالَ جسد العجوز بنطاعة بينه وبين الدخول ورمقه بالنظرة الجارحة التي تنتظر منه الإجابة عن السؤال الذي طالما كرهه: مَن أنت؟

كنت قد تجهزت لمشهد آخر:

أن تدخل الشركة، ثم تهين هاني الديب أمام الموظفين، كنت قد دبَّرت نفسك جيدًا وأعددت له سجلا حافلا بالاختلاسات المتراكمة إذا ما خرج طموحه عن السيطرة. اختلاسات صغيرة تمهيدًا لضربة كبرى، كنت ستطوق عنقه أيضًا بكل اتهامات النصب التي تعرضت لها الشركة، والتي طالما احتفظت لها في خيالك بكبش فداء آخر إن تأزمت الأمور، لذا كنت تستبقي بين موظفيك موظفًا فاشلا لا يحقق أهدافه، لم يكن الديب هو كبشك بل خليفتك الذي صبرت عليه طويلا، كنت ستمنحه كل شيء عندما تقرر التقاعد، بل مر على ذهنك خاطر تزويجه من ابنتك الكبرى، كنت قد أعددت له القرابين كي لا يسرقك، كما فعل معك الكفراوي، لكن الطماع الذي تعجَّل هو مَن تخير ذلك المصير، بتجرئه على سيده الذي أحبه حقًّا، تحديدًا للسبب عينه الذي سيعاقبه من أجله، لأنه الوحيد الذي رأى فيه شيئًا يستحق النسخ، تلك ثغرتك التي تسلل منها إليك.

كان الخباز أنيقًا ولامعًا. تساءل: هل اعتاد رداءة روحه؟ أم أعيد

تجهيز تلك النسخة من رواية حياته لتغزو الأسواق؟ هل خُيل لي أن على عنقه كود رقم إيداع؟

خُيل لي؟ يا للبلاهة، فلتفقْ يا أعور، كل ما يحدث يُخيل لك، ولا سيطرة لك على شيء، ربما عليك أن تعترف أخيرًا، إن كان قانون اللعبة قد تغير، فليس عليك أن تفعل سوى ما اعتدته، الحكمة التي جعلتك ناجيًا لا يعرف الهزيمة، مجاراة اللعبة حتى تتحكم بها وبثغراتها، حتى تعمل قوانينها لصالحك، فتصير سيدها، لذا لن يُكتب ذلك المشهد كما خططته في خيالك، كشأن كل رواياتك التي تباهيت طويلا أنك تخطط بصرامة لكل حرف فيها قبل الشروع في الكتابة، لأن الارتجال يرعبك وتخشى أن يتسرب عبره ما تخفيه أو لأنك سمعت أن بعض الكُتاب الكبار يفعلون ذلك وظننتها فكرة براقة بما يكفي لتصيغ منها أسطورتك ككاتب، كما فعلت حين قررت أن تروج عن نفسك أسطورة أخرى، أنك كنت في مراهقتك إذا ما قرأت كتابًا أعجبك، قبلت صورة مؤلفه على ظهر الغلاف ثم وضعته فوق رأسك، وبرغم تفاهة الفعل، إلا أنه حتى لم ينبغْ منك بل من ذكرى تفوه بها شخص أمامك، الجلال الوحيد لتلك السذاجة، أنه كان يفعلها برغبة صادقة صاعدة من أحشائه، لذا كانت حلوة في فمه، ماسخة من فمك وأنت تتخيل ما سيُردده المعجبون عنك بعد مماتك، إرث كهذا هو كل ما تركت، أن تجعل كل ما لمسته يداك تافهًا، خاويًا من المعنى، أيمكن اعتبار ذلك هبته الحقيقية؟

اليوم لن تفضح خيانة الديب، لن تقطع دابره أو تسقيه العقاب، بل ستمتثل، لذا ستخبر العجوز ببساطة:

«محمد الأعور.. روائي، ولديّ موعد مع الأستاذ هاني الديب».

أشار له بالدخول، لا مكاتب ولا موظفين، بل بهو واسع به عدة مقاعد خُصصت للعملاء، ومكتب استقبال تجلس خلفه سكرتيرة حسناء بعض الشيء، ومَن غيرها: حليمة وقد صبغت شعرها بالأصفر وارتدت نظارة.

صار مكانًا أكثر تنظيمًا ونظافة من الفوضى التي كانت عليها الشركة، حيث تتكوم المنتجات وأكداس من الأوراق والملفات في الأرجاء والأركان، يعلوها الوسخ والإهمال.

فوق مكتب الاستقبال لوجو الشركة، الهامستر الذي يركض داخل كرة زرقاء ضخمة، وقد تضاعف عدة مرات، وقد كتب في إطاره: **«وما أطال النوم عمرًا.. ولا قصَّر في الأعمار طولُ السهر.. روايات 24 ساعة».**

أطال النظر إلى الهامستر، بدا حيًّا وتتلوى بعينيه حية الكاتب المخذول، على استعداد ليقفز من الكرة في أي وقت ويهجم على عنقه، أو أن يمد ذراعًا خرافية فيأسره داخل الكرة ويفر هاربًا، ليواصل عوضًا عنه ركضًا أبديًّا، أو ربما يجبره على الركض معه، وأن يستمع بلا نهاية إلى ما تعرَّض له الهامستر الكاتب من ظلم، عاكفًا على تأليف رواية عن نفسه لن يكتبها أبدًا، بل هي جماع ثرثراته وتخيلاته عن حياته «كروائي عبقري وسط أمة لا تقرأ أعماله التي يجب أن تصنف ضمن الروايات الخالدة والكبرى لولا الفساد والعفن، عن نوبل التي في انتظاره لتنجيه».

«ركض أبدي» اسم بقليل من التطوير قد يلهمه روايته القادمة، رجل فقدَ التحكم في ساقيه، عينيه، عقله، حياته، فظل يركض إلى الأبد، دون أن يتقدم خطوة واحدة، داخل كرة زرقاء لا تتوقف عن الدوران.

تقدمت حليمة نحوه بتنورة قصيرة وكعب عالٍ، لكم بدت فاتنة، أعطته استمارة وطلبت منه أن يملأها قبل أن يقابل الأستاذ هاني الديب لتوقيع العقد حسب الباقة التي يفضلها «سنتناقش في العروض المتاحة معي بعد أن تنتهي من تدوين بياناتك». حسنا، أي لعبة تلعبها الآن، زبون تراه للمرة الأولى، وابتسامة حيادية لموظفة.. فليكن.

أعطته كتيبًا ليساعده. كتالوج ودليل إلى الرحلة التي تبدأ بوعد أن تصنع منك الروائي الذي تريده: بلزاك، ستندال، نجيب محفوظ، كافكا، ماركيز، فرجينيا ولف، دوستويفسكي، ميخائيل بولجاكوف، إيتالو كالفينو، فلاديمير نابوكوف، كافكا... وآخرون.. أو أي هجين تختاره من عدة كُتاب، مع أسعار خاصة ووعد باللمسة السحرية التي تجعلك أكثر خفة وإثارة مع الإيحاء بأنك تملك عمقهم، تدريب دقيق على الوصفة، توحي أنها تتفوق على النسخ الأصلية، وقد أعيد إنتاجها وفق قوالب السوق المحددة سلفًا.

لم يجد اسم الكاتب الوحيد الذي يريده، فرج الكفراوي وروايته فاطمة العرافة، لا يشتهى سواها. اكتشف بإعادة قراءة الكتالوج أن بإمكانه الحصول على أسلوب أي كاتب مجهول يريده كهدية على باقة تسمى باقة السر، قرأ مميزات تلك الباقة فأدرك أنها بالضبط ما

يريده، فقرر اختيارها رغم أنها الأعلى سعرًا.

بعض الروائيين المعاصرين كتبوا كلمات ترويجية عن المشروع، رأى اسم سمير عبد الرءوف، الفائز بجائزة الدولة التقديرية للآداب ـ متى؟! ـ وعلى لسانه الكلمات التالية:

«كدت أفقد حماسي لفن الرواية أعاده إليّ مشروع هاني الديب الطموح...انضموا للمستقبل».

لماذا يرى صورة زوجته كريمة وسط هؤلاء، رغم أنها لم تخُطّ حرفًا في رواية؟ كتبت:

«لا داعي بعد الآن لتمزيق حنجرتك بحثًا عن صوت، أو آنية روحك بحثًا عن دفقة دم».

تحت اسمها نبذة عن أبرز أعمالها، روايتَي العهد وأسر الغزالة. ترجمت كتبها إلى أكثر من عشرين لغة، خطوة واحدة واسعة تفصلها عن أقرانها إلى الجائزة التي لم ينلها سوى كاتب عربي وحيد. بالطبع. هذا منطقي، عادل وشاعري وله أثر محرر. فلترث ما لها من جثته.

يعد الكتالوج أن يستثمر كل البيانات التي حصل عليها من الروائيين لإنشاء برنامج إلكتروني أكثر تطورًا، تطبيق ما زال قيد الاختبار، ويطلب متطوعين من أجل إتمام «المهمة المقدسة» بحسب وصف الإعلان. النبذة عن ذلك التطبيق غامضة: سيكون «نقلة جبارة ونهائية، اللعبة الأخيرة في هذا الفن، الحل الشافي لعلاج الحالات الميئوس منها». أثار ذلك فضوله.

ليس هناك عميل سواه، لا يسير العمل على ما يرام إذن! ما الذي ينقصهم؟ آه بالطبع.. مدير جيد لا نسخة رديئة منه.

ضمن العروض المقدمة في الدليل، حلمه الأثير وقد تحقق، ماكينة لتوقيع الروايات تقدم كهدية ضمن عرض الباقة الأعلى سعرًا.

كل ما يحدث هو سرقة فاضحة لحياته وأفكاره، مطبعة الروايات المقلدة والتي لا يمكن تمييزها عن الأصل والتي ستمنحه عبر أرواح عملائها السر العصيّ، لا يمكن للديب مهما اجتهد في اقتفاء أثره أن يبلغ تلك الفكرة إلا لو انتزعها من عقله انتزاعًا. مرة أخرى يا أعور، هذا ما حدث فعلا، لكن فلتعترف، لم تكن فكرتك في الأساس، بل جملة عابرة طنطن بها الكفراوي في واحدة من رواياته، منتحلة بدورها من مقطع برواية «لو أن مسافرًا في ليلة شتاء» لإيتالو كالفينو:

«منظمة إنتاج إلكتروني للأعمال الأدبية المتجانسة بالمعالجة، فريق من الخبراء والكُتاب أشباح متخصصون في محاكاة الأسلوب الأصلي لكاتب بكل دقائقه اللغوية وبصماته وأنفاسه، دون أن يستطيع أي قارئ ـ أيًّا مَن كان ـ التمييز بين الأجزاء المكتوبة بيد عن تلك المكتوبة بغيرها. وأجهزة كمبيوتر يمكن أن تبرمج لتطوير عناصر أي نص لأي مؤلف، بمنتهى الدقة وأمانة المعايير الأسلوبية والمفاهيمية له، صمّمت في الأساس لتساعد الكُتاب المأزومين على إنهاء نصوصهم غير المكتملة. تشارك في العملية بنوك وجهات تمويل على المستوى الدولي، لإنتاج قصص تُذكر كإعلانات تجارية تُدر الأرباح، ماركات المشروبات الروحية التي تحتسيها شخصياتها،

والأماكن التي ترتادها، ومبتكرات بيوت الأزياء، الأثاث والمفروشات والآلات الجديدة والعقارات وموديلات السيارات والأماكن السياحية».

تحدث كالفينو عن غرفة مراقبة، بها قارئة ملتحمة في المقعد من معصميها مع مانو مترات قياس الضغط وسماعة صدر، فوداها تحت هامة شعر محكمة الربط بالأسلاك الملتوية لجهاز تصوير المخ بالأشعة، الذي يحدد مدى قوة تركيزها وذبذبات التنبه، اختبارات سيطرة يتعرض فيها المرء للقراءة بلا هوادة ومتغيرات قصص كما خرجت من الكمبيوتر ـ اشترط المشروع شخصًا حاد البصر وقوي الأعصاب ـ فإذا سجل مؤشر الانتباه في القراءة ارتفاعًا مؤكدًا مع استمرار مُحقق، فإن المنتج قابل للحياة ويمكن طرحه في السوق، أما لو استرخى الانتباه وتحول فإن التركيبة ترفض وتطحن عناصرها ويعاد استخدامها في سياقات أخرى.

«ما من قصة واحدة يجرى إنتاجها تنجح في الاختبار»، يقول الرجل ذو الرداء الأبيض في رواية كالفينو: «فإما أن البرمجة بحاجة إلى تصحيح وإما أن القارئة لا تعمل».

يجيب كالفينو: «أليس الإلحاح مثل قارئته لودميلا، على أن المرء يمكنه الآن أن يسأل عن الرواية فقط لاستثارة أعماق اللوعة الدفينة، باعتباره الشرط النهائي للصدق الذي سينقذها من أن تكون منتجًا لخطّ تجميع، كمصير لم يعد بالوسع الهروب منه؟».

نعم، ذلك مصير لم يعُد بالوسع الهروب منه، وسط تلال الخرائب

ورماد الانحطاط رأى فرصته في الصعود. فارس أخير يقيم مملكة الجمال البائدة، لم يسعَ إلى مكانة الروائي التجاري أو الأفضل مبيعًا، رغم أن ذلك جاءه أيضا عبر تخطيط وإلحاح لأنه أيضا عين ما أراده، بل كان حريصًا أن يصنف ضمن كُتاب كالأسماء التي وضعها الديب في كتالوجه.

أثارت فكرة أن تكون الرواية كمنتجات تصنيع كل أحلام يده العاجزة عن كتابة سطر واحد تحركه أصالة الرغبة، سطر واحد لطالما تضرع من أجله وبكى وكفَّر وتوسل ولو انتحل كل ما حوله، لمسة الحقيقة وحدها، تكفي لحماية فن الرواية، لأنها في العمق ليست سوى بنيان ناصع من الزيف.

ربما لم يسرقه الديب، ربما ما يحدث الآن هو أن آلة أحلامه تقربه أخيرًا من السر، عبر نسخة الديب المنتحلة منه، لعل عبد الرءوف كان على حق، ما يحتاجه بالضبط هو نسخة أكثر شبابًا لم تلطف جوائز الطريق من جوعها، بأسنان لم تلِنْ ولا تعرف الندم.

استسلم يا أعور، انغمس بكليتك في الحلم ولا تعد، لربما في أغوار تلك الهاوية الملعونة نعيم غامض، في عمق ذلك الكابوس تختبئ صلاة، ربما تُمنح سر رواية فاطمة العرافة مقابل الثمن الوحيد المعقول الذي حدده الكفراوي عبر حبكته الساذجة: حياتك. ربما ما من سبيل لإيقاظ روحك سوى أن تتردى في قاع الجحيم. لكن هل تستقيم تلك الحياة كما كانت، أم ينهشني الشك ويُحيل كل أفعالي إلى عدم إذا ما انكشفت لي الأوهام؟ هل ستعتريني الرجفة من هول الحكمة وفظاعة الكذبة، هل أزدري كل شيء فيصبح المبهج وحشًا

ضاربًا يلتهم الأرواح، ويصبح المحزن طريقًا للمعرفة، فيستوي لديّ كل فرح وحزن؟ هل يستولي الجنون على عقلي إلى الأبد؟ وأي حقيقة أملكها دون الخداع والنهم والعدوانية والخيلاء والبخل؟ أي خواء مفزع ينتظرني؟

ملأ الاستمارة:

اسم المنتج: فاطمة العرافة.

اسم الروائي: محمد الأعور.

جنس الروائي: متخيل.

الروائي المطلوب انتحاله: فرج الكفراوي.

تسلمت منه حليمة الاستمارة ثم قادته إلى غرفة متقشفة تنبعث منها رائحة الأدوية والعطارة، داخلها يجلس هاني الديب على مقعد خشبي مستقيم الظهر، لا إراديا قارن رثاثة هيئته ببهاء تلميذه الذي استقبله بوجه يعرفه جيدًا، الكياسة والتهذيب التي تعكس تحكمًا تامًّا في الموقف، لكنها ليست سوى سدّ هائل يحول بين نفسه وبين طوفان من الغضب والكراهية، يُلجم سكين القاتل.

«شرفتنا يا أستاذ محمد.. هل توصلت إلى الباقة المناسبة لك؟».

«باقة السر».

«أفضل اختيار.. لكنها الأعلى سعرًا كذلك».

«أعلم.. لمسة واحدة من الحقيقة أتنازل عنها إلى الأبد».

«حسنًا.. كل ما أطلبه منك هو أن توقّع على هذا الإقرار».

قرأه الأعور سريعًا، كان عليه أن يوقع إقرارًا يُخلي مسئولية الشركة الصينية عن النتائج المترتبة على استعمال منتجها، كما لا تتحمل الشركة أي أضرار قد يتسبب بها العميل في حالة إخفائه للحقيقة أو عدم قدرته على تحملها، يعتبر توقيع العميل موافقة ضمنية على إعادة استخدام بياناته داخل أي منتجات روائية أخرى.

ما فائدة العقل؟ وقّع دون أن يفكر مرتين.

دخلت حليمة، ثم دلف وراءها صانع الحلوى وهو يرتدي معطفا أبيض وكمامة. لم تكن نسخته العجوز ولا المنتحلة منه كساعٍ، بل نسخة شابة، عشرينية ذات وجه أسمر وجسد هشّ وقامة قصيرة شديدة النحول كقلم رصاص، شعره أسود قصير، له لحية خفيفة، عيناه زائغتان في عصبية.

سأله الأعور عن سبب ارتداء الكمامة. طافت لمعة الهذيان في عينَي صانع الحلوى الشاب، فقال

«ألا تعرف بأمر الوباء؟».

«الكوفيد؟».

«بل الجنون.. أنصحك بارتداء كمامة مماثلة»، ثم قذف له بواحدة.

ضحك الديب:

«لا تصدق هذا الأبله يا سيد محمد، التعقيم والنظافة أمران نحرص عليهما في شركتنا».

سعل صانع الحلوى، ثم قذف الكمامة على الأرض، استنشق نفسًا عميقًا من هواء الغرفة الراكد، ثم قال بصوته الشارد في سماوات أخرى من خلف الكمامة:

«لا فائدة من تلك الكمامة اللعينة.. لن تصد الجنون. إنه في كل مكان، ينتقل مع الهواء، الماء. سيصيبنا جميعا ولو كنا في بروج مشيدة».

«مجنون حقيقي». قال الأعور لنفسه، لكن لما خلع الكمامة فتنته براءة ملامحه وحيويتها. اقترب من الأعور وتفحصه بأصابع طويلة ودقيقة ولا تتناسب مع قامته، ثم ضغط بها على وجهه بقوة آلمته، كأنه يعيد عجن ملامحه، تحت أظافره بقايا عجين، كيف لم يلحظ تلك الأصابع في كل النسخ التي قابلها منه؟ قارنها بأصابعه الغليظة، وتمنى أن تكون له أصابع طويلة ودقيقة تشي بالبراعة كأصابع ذلك الخباز، لكن كاملة وبأظافر نظيفة.

أعطاه الشاب قطعة صغيرة من مخبوزاته، كانت شهية وودّ لو التهم المزيد ثم طلب منه أن يشرب كأسًا من شربات أحمر، ففعل، ثم قال مستحسنًا:

«لم أقابل في حياتي صانع مخبوزات وحلوى أكثر موهبة منك».

«حقا.. ظننت هذا مثلك قبل أن أدرك أن موهبتي الحقيقية تكمن في شيء آخر».

«وما هو؟».

«القدرة على الاستلقاء على الأرض وتأمُّل السقف لساعات طويلة».

«فقط؟».

«أحكُّ خصيتي من آنٍ لآخر أثناء التأمل».

«ولماذا تتأمل السقف؟».

«أحاول أن أفهم لماذا صُممت أسقف البيوت مسطحة، لا بيضاوية كالأرض».

«وهل حصلت على إجابة؟».

«لا.. بل آلام في الظهر، لكني أقلعت عن هذا الهراء واعتدت الوقوف في الشرفة للتدخين، وبدأت في عدّ السيارات التي تمر في الشارع لساعات أطول.. ثم هبط عليّ إلهام مُباغت كإشراق».

«وبمَ ألهمت؟».

«أن عليَّ ارتكاب جريمة قتل».

«قتل مَن؟».

«سيرفانتس!».

«وهل نجحت؟».

«ضبطوني وأنا أجمع نسخًا من رواية دون كيخوته لحرقها.. لا أتذكر ما حدث بعدها.. سوى التحاقي للعمل بالشركة الصينية لخدمات الرواية وما بعدها».

«على الأقل تملك موهبة ما».

«لكني أفضل عليها موهبة الرسم».

«أنت رسام إذن؟».

«أعرف سرًّا جوهريًّا عن الرسم: لا أجيده. قد تظنها معرفة هينة، لكنها في رأيي تضاهي في عظمتها ما ينكشف للرسامين الكبار من أسرار».

أنهى الديب الحوار بلهجة زاجرة:

«فلتباشرْ عملك».

طلب صانع الحلوى ملفَّ الأعور من حليمة، أخرج وريقة متهالكة بها سبعة أبيات خُطت بخط طفولي. قرأ ما فيها سريعًا، ثم أعادها إلى حليمة:

«أنا واحدها وهي أعضائي انتثرت. يا له من عنوان مُبتكَر! استنساخ محمد عفيفي مطر.. خطأ المبتدئين.. لقد بلغ درويش ومطر ذروة قصيدة التفعيلة.. بعد الذروة لا شيء سوى الموت أو ميلاد شيء جديد... حساسيتك بليدة تجاه الزمن يا دون أعور.. لذا ابتلعك الوجه الأمبذوقليسي في جوفه الضخم».

«من أين حصلتم عليها؟».

قال الديب:

«تقصد قصيدتك الأولى؟ سلمتنا إياها زوجتك، هي مَن حجزت

لك الموعد بنفسها كهدية لعيد ميلادك.. يا لها من روائية عظيمة! لكن أيضًا ذات قلب كبير.. أحسدك عليها.. لقد أخبرتنا بكل شيء عن طموحك القديم، أن تكون روائيًا معروفًا مثلها، عن الحالة النفسية التي صِرتَ إليها بعد عجزك عن تحقيق هذا الحلم، عن شرودك طويلا وتأمُّلها بعينين حجريتين مُخيفتين بعض الشيء، اتهامك الصامت لها أنها المسئولة عن ذلك العجز الذي امتد.. سامحني.. إلى الفراش أيضا، عن وعد قديم بينكما أن تقدم لك يد المساعدة عندما يحين دورك لتلقيها.. لكن لا تقلق يا سيد أعور، نحن هنا لعلاج كل شيء، كما أن لدينا بالشركة الصينية منتجات أخرى، قد تساعدك في إحم! تفهمني طبعًا.. كما أرجو أن تغفر لزوجتك أنها شاركتنا تلك المعلومات الحساسة والتي ستظل سرية كشأن العلاقة بين الأطباء والمرضى.. أقصد العملاء. السيدة كريمة تعي بحكم خبرتها أنه كي نصل إلى نتائج دقيقة بشأن الرواية التي تطلبها، علينا أن نعرف كل شيء عن العميل».

«أتفهّم تمامًا».

اندهش من استسلامه أمام الكلمات الصعبة التي سمعها لتوّه.

مزق صانع الحلوى القصيدة إلى قِطَع صغيرة ثم أذابها في كوب به محلول أخضر كثيف، فار المحلول، ثم وضعه فوق موقد.

«فلننتظر حتى تتبخر الكلمات».

أطفأ نار الموقد ثم حمل الكوب الذي تحول لونه إلى أسود غليظ، ثم أخذ بضع قطرات شديدة اللزوجة منه، وصبه في كوب ماء بارد.

«اشرب هذا».

فعل، ثم قال له صادقًا:

شعر الأعور بفوران في جوفه، ورغبة عارمة في القيء. أعطاه صانع الحلوى كيسًا فارغًا ثم شرع في ترديد ذِكر:

«يا لطيفًا لم تزل.. الطف بنا فيما نزل.. يا لطيفًا في الخفاء.. الطف بنا في القضاء».

انتهى من القيء وارتعش جسده بقوة من أثر برد فجائي وقارس، فردد الذِّكر وراءه، حتى قال الديب: «الآن أنت مستعد».

اقترب صانع الحلوى وبأصابعه ووضع اللمسات الأخيرة لوجهه، ضغط بقوة أكبر على الجبين والذقن والأنف والعينين، منحته حليمة مرآة ليتأمل صورته، وقد عاد شابا في بداية العشرين، لم يكن يحتاج إلى المرآة، لقد شعر بالأمر من رجفة جوع وحشيّ إلى شيء غامض وعصيّ سرى في جسده، وصرير أسنان يطحن جبلا من الحقد.

«ما الذي سيحدث الآن؟».

«لقد حصلت لتوّك على دعوة لحضور حفل نادر وسِري سيرشدك إليه كاتبك المفضل فرج الكفراوي، بعد أن تعود منه ستكون قد حصلت على السر الذي تريد، وستكتب الرواية نفسها بنفسها خلال خمسة وأربعين يومًا بيد خالصة لا تتوقف عن الكتابة، الطموح المستحيل لكل كاتب».

انقبض قيد المقعد على معصميه، رُبطت أسلاك ملتوية إلى رأسه،

مع مانو مترات قياس الضغط وسماعة صدر وغشيت عيناه بنظارة افتراضية، قال معترضًا:

«أخبرني الكفراوي أنه كتب فاطمة العرافة في خمسة عشر يومًا بلا انقطاع أو تجارب أو آلات».

«أول خطوة في تعلُّم فن الرواية: لا تصدق ما يقوله كاتب عن نفسه».

انساب في الغرفة هواء مفعم بخلاصات معطرة لورود ذكية الرائحة، ضوء أزرق أرخى أوتار أعصابه المشدودة والمعذبة بنفسها، صوت أم كلثوم، كان صرحًا من خيال فهوى، يسري من مكان خفي، صافيًا وحيًّا كأنك تجلس في إحدى حفلاتها، كما كان في مكتب الكفراوي عندما قابله كتلميذ. يتسلل الخدر إلى رأسه. ما الحاجة؟ أهناك طبقات أعلى من الكابوس لم يبلغها؟ تتردد في عقله تلك العبارة:

«آه! كم ستكون حياتك لذيذة! سأعطيك خاتمًا مسحورًا، عندما تدير ياقوتته الحمراء، تصبح لا مرئيًّا، كالأمراء في قصص الخرافات». أين قرأها؟ ربما فعل وربما لم يفعل، ربما هي ارتجال أم كلثوم وجوقتها من الروائح والضوء.

خطر له أن يسأل:

«هل تمنح الشركة شهادة معتمدة؟».

* * *

بوعي مُضبب كصفحات كتاب غائمة، أفاق على صوت أم كلثوم منبعثًا من راديو مع خروشة خفيفة لم تزعجه. كان في سيارة يقودها فرج الكفراوي، وقد ارتد إليه ألقه وهيبته القديمة. كانت عقارب الساعة في يده تدور إلى الوراء في جنون، وغيمة مثقلة في السماء توحي بمساء مطير، نظر من النافذة، كانت السيارة تحاذي قضبان قطار، وقمر من قش يتبعها أينما حلت.

علم أنه عاد لهيئته كتلميذ من طريقة جلوسه الخاضعة والمتربصة في آنٍ لانتزاع السر ولو من أحشاء أستاذه، لو استطاع لقطع رأسيهما معًا وأحل رأس الكفراوي فوق جسده الشاب، وألقم رأسه التافهة للكلاب.

رويدًا رويدًا ينحلّ الضباب عن عقله، لقد انتهى اليوم من تسويد رواية الكفراوي على الكمبيوتر، لكن بدلا من النهاية المؤلمة لتلك الذكرى التي انتهت بالحكم عليه كلصّ عديم الموهبة، سيقرر الكفراوي أن يمنح تلميذه الأخير مكافأة حقيقية، الأسرار لا القشور، لا، بل السر الأهم على الإطلاق.

الليلة سيكون رفيق رحلته التي يقطعها كل عام إلى عزبة فاطنة موطن نشأته، شرف لم ينله من قبل إلا قلة من تلاميذه.

لقد انتظر تلك اللحظة بشغف طيلة سنوات، لم يكن يعرف الكثير عن سر تلك الزيارة، إلا أنه كان يعرف بشأن قداسة الرحلة وأهميتها لمَن تخيره الكفراوي كي يشاركه ذلك السر الذي يقسم بروحه ألا يفشيه، وقد فعلوا جميعًا، لكن يمكن لأي أعمى أن يرى أنهم يعودون

بأرواح جديدة، أكثر صفاء، كأنهم اقتربوا من سر الإلهام، ووجوه شاحبة تليق بمَن رأى حقيقة مروعة، بعدها يتخذون قرارات مصيرية، قلة منهم يواصلون الكتابة كلعنة ملاصقة للقلب يحملونها حتى الممات، بعضهم يقرر الصمت ولا يخط حرفًا واحدًا بعدها وينكر كل صلة له بالأدب، إن قابلته بالصدفة سيدّعي أنه لم يرك يومًا أو يسمع عن فرج الكفراوي أو أنه قرأ رواية أو ديوان شعر. بعضهم يتخذ قرارات أكثر حسمًا وجدية بأن يسلم عقله إلى الجنون أو الانتحار قفزًا من شاهق، أما مَن يعاند الحقيقة التي رآها إن لم تأتِ في صالحه، فيتحول إلى كاتب مضطهد يسير فوق أسنة حادة لعظمة متوهمة، لعنتهم هي مشي طويل بأقدام مُدماة تحت سوط الشمس ولسان لا يعرف إلا الهذيان. بعضهم ذائعو الصيت.

كان خائفًا بالطبع، وقد فهم أن تلك الرحلة ليست إلا مُقامرة على تحديد المصير دون خط رجعة، لكن متى كان يعني الخوف له أن يكف عن مواصلة المشي بشجاعة؟

تقع عزبة فاطنة على أطراف محافظة الشرقية في بقعة ابتلعها ثقب أسود على الخريطة، وكانت مسرح كل روايات الكفراوي التي قرأها الأعور عشرات المرات بشغف، فانطبعت في ذهنه كمزيج غريب تحفّه حقول وعشوائيات ومصنع للطوب ومطبعة مهجورة ونخيل قليل متناثر وآثار غابرة لإقطاعيين قدامى، يتناثر النخيل في أرجائها لكن علامتها المميزة شجرة جميز عتيقة ومقدسة، شاهدة على الحمقى والمختلين والشجعان، تأتيها أرواح الموتى على هيئة طيور لتأنس في كنفها المبارك. يقسم العزبة شريطُ ماء

من المنتصف ويسميه أهلها زورًا البحر العظيم، ويسكنها أنصاف متعلمين وفلاحون وبلطجية وجن وضفادع ودراويش وشيوخ وقساوسة ومجانين وسكارى ومومسات وتجار مخدرات وقتلة. يطوق العزبة مقابر على امتداد البصر، تحرس أهل العزبة صباحًا وتأكلهم ليلًا، وبالعكس.

سُميت العزبة بهذا الاسم، نظرًا لشهرة بيت فاطنة الذي يقع بين المقابر، هذا البيت لا وجود له، قلة فقط مَن تردد أنها رأت البيت فعلا، فاطنة نفسها ليست سوى شبح، يُقال إن في الليالي التي ينضج فيها القمر كرغيف خارج لتوه من فرن، يجوس شبح فاطنة في شوارع العزبة وهي تحمل فأس الجبروت، تقطع رأس مَن تراه، تلتهم عيالا شاردين من حناجرهم الطازجة، تحرق حقلا أو اثنين. يقال إن سبب غضبها هو أن العزبة قتلت حبيبها غدرا ذات ليلة، ويقسم البعض إنه سمع صراخها الملتاع: أين أنت يا حبيبي لتستنشق عبير ثديي الساخن. ينطفئ غضبها في النهاية. تعوض العزبة عن القتلى بهدايا حاكتها من الضباب ببكرة غزل، فتترك تحت بيوتهم ملابس وأكفانًا وألعابًا للأطفال.

يقال إنها حاكت رءوس بناتها بنفسها، من القرابين التي يتركها الرجال على عتب بيتها كل ليلة: أنثى غافلة، غضة كالفجر، مقيدة ومغموسة في الطين. يختارون الخاطئات منهن، المرفوضات خشية إملاق وفضيحة النمو كأنثى، كي تنحرها بدلا عنهم. في الصباح يجدون رأس البنت طافية على مياه ترعة، أو تتدحرج ككرة من نار، لا تؤذي أحدًا، بل تنطفئ. يقولون إن فاطنة تحيك رءوسًا حية لهن

على أجساد ميتة، وتهبها الحياة وبالعكس. قد تطلق سراح بعضهن، لتهبهن حنجرة قوية تلقم فيها ذكرًا، لينبتن في الأعالي، ويصرن كواكب لا يقتلهن العدم. لا ينجو أغلبهن، بل يتحطمن على يد ذكور غاضبين ومجانين يأكلهم الهوس وتنهشهم الهزيمة، فيصرن على أيديهم كومة زجاج مكسور.

يصر الكفراوي على أنها حكاية حقيقية، وأنه رأى فاطمة بنفسه في طفولته تطوف حول بناتها ذوات الجَمال الأسطوري النادر. لم يصدقه الأعور. لا أحد رأى فاطنة، لا أحد رأى بنات فاطنة، قال لنفسه.

عندما وصلا إلى حدود العزبة قال الكفراوي:

«جاهز يا بطل».

بدأت أغنية ثورة الشك لأم كلثوم.

أوقف السيارة وطلب منه أن يترجلا حتى بلغا مسجدًا. انحرفا يسارًا، ثم سارا عبر زقاق في نهايته مخبز، وكان قد علم مما قرأ في رواياته أنه المخبز الوحيد في العزبة الذي لا يغلق أبوابه أبدًا، وكان السهيرة ولاعبو القمار والسكارى والمجرمون وقاطعو الطريق والعُشاق المتسللون توًّا من بيوت عشيقاتهم هم زبائنه المُفضلون.

تقدما عبر أزقة وطرق ملتوية، حتى وصلا إلى طريق بدا للأعور مغلق النهاية، لولا أن الكفراوي مد يدًا في الظلام وأدار مقبضًا صغيرًا على هيئة ترس، فانفتح له باب صغير، دلفا عبره إلى ممر ضيق، نصف مُظلم، بارد، جدرانه متآكلة تتوسل السقوط، تشيع فيه رائحة

الزنخ والجنون ويحيطه صمت راكد ومخيف.

رأى خفاشًا أو اثنين يدهسان العماء. ركل الكفراوي جرذانًا ضخمة بأقدامه، فقلده وركل أشياء وهمية، فتعثر.

«فارس حقيقي!».

نهض مُحرجًا، تقدما حتى وصلا إلى درج من سلالم حجرية، صعداها فرأى غابة من الأشجار، تقف عليها غربان سوداء. ميّز من بينهم واحدًا يتطوح، كان سكرانًا ويحاول أن يلكم الريح.

«أين نحن؟».

«برزخ إلى ما أردت».

عبرا أشجار الغابة الكثيفة حتى تجاوزاها إلى أرض قاحلة، تتنازعها ريح صفراء، وتتطاير بها أوراق أشجار جافة، صفحات ممزقة من كتب، تقدما عبر الأرض القاحلة، في نهايتها ضباب رمادي كثيف يمنع الرؤية، عبرا باتجاهه حتى ابتلعهما في جوفه قبل أن تلوح لهما شواهد قبور. تحوم حول الشواهد أطياف لأشباح عراة فزعين يركضون دون أمل في مخرج. تسللا من بين الأضرحة، بعد عدة خطوات سمع الأعور نقيقًا لضفدع رآه يقفز مبتعدًا، تعالى النقيق ليشكل جوقة تعزفها ضفادع بلا عدد، خطر له أنها تنقل رسالة تحذيرية بشأن دخول غريب، لكن كلها هدأت بإشارة من الكفراوي.

تجاوزا المقابر نحو أرض تتناثر فيها تماثيل حجرية، أشكال غريبة لم يميز الأعور إن كانت لبشر أم لحيوانات أم لمسوخ تكبل الأفاعي

أيديها من الوراء ناشبة رءوسها وأذنابها في أعجازهم، تفحصها مليًّا وكلما يكاد أن يمسك بالمعنى رواغه، لكنه لن يخطئ الفزع الرهيب في أعينها، وأن ما تحويه هي أرواح شاهدت الهول، قبل أن تتحول إلى تماثيل من حجر، وعلى حين غرة رأى أفعى تهجم على عنق تمثال منهم، فتفتت إلى تراب، تجمع من تلقاء نفسه ليسترجع جسده للحظات، ثم هوى بقوة شيطان يجذبه إلى الأرض وعندما نهض تطلّع حوله زائغ البصر لفرط ما عاناه من ألم وما ينتظره. التفّت حوله الأفعى كالتفاف اللبلاب، امتزجا معًا وتحوّلا إلى مسخ حجري له معالم الاثنين.

سأل الكفراوي عنهم. فلم يُجب، لكن بدا عليه القلق وإن أخفاه.

مَضيا قُدمًا، حتى سمع أصواتًا لرياح عاصفة ومكتومة تزأر ساخطة كجنيّ أسير قمقم، كأنها ترغب في الفكاك من محبسها، بدا أنها لو فعلت لاكتسحت كل شيء. رأى أرضًا مفروشة بجماجم وعظام، لم يكن هناك مفر من دهسها، شرح له الكفراوي أنها رفات كُتاب أكلهم النسيان والموت، عاشوا وماتوا دون أن يدركوا أن حياتهم بأكملها كانت عبادة وقرابين تذكي خلود الآلهة، محض حطب كي لا تخبو نيرانهم.

أمره بالتحرك، فعبرا أحراشًا من نباتات تشبه نبات «الحلفا» الشيطاني، عرف من الكفراوي أن تلك المنطقة تُدعى «زوائد الشيطان» تتغذى على الجُمل المشطوبة والمسودات والشخصيات المحذوفة والقصص المرفوضة، أغلبها لا فائدة منه. تعثَّرا في أجنحة مشوهة ومسوخ لشخصيات غير مكتملة وظلال تزوم في غضب

وأفاعٍ، ألقمها مسودات محذوفة من رواية الكفراوي الأخيرة وقد جعله يحملها في حقيبة على ظهره، فتركتهما في سلام.

عندما تجاوزا «زوائد الشيطان»، بلغا أرضًا فضاء في منتصفها مخزن ضخم نصف مُوصد، تقدما نحوه، فتح الكفراوي الباب ليكتشف الأعور مغارة علي بابا، أشياء بالغة الغرابة والروعة، سقف مُضاء بأبيات من الشعر، جهاز مونتاج للذاكرة يصنع عبره آلاف المسارات والاحتمالات، بكرات غزل تنسج هدايا برّاقة وتفسد بسرعة لنشتري منها المزيد، الأصلية منها تغزل شموسًا وأقمارًا ومدنًا ورءوسا لبنات ملفوظات، رأى عرضًا لكتاب «80٪ رواية 20٪ كحول».

كانت هناك مئات الكتب المكدسة والتي يعلوها التراب والوسخ، لكن أكثر ما لفت نظره كان الساعات: ساعات يد، حائط، ساعات عملاقة، ساعات تلعب الموسيقى وتطلق العصافير والزمن، ساعات قديمة وجديدة وأثرية، لها وجوه وحوش مخيفة، أخرى كان لها شكل قرص الشمس، تعكس قاعدتها ألوان الطيف وأخرى على هيئة رجُل مُعذَّب يحمل الأرض، بدا أن لبعضها وجوهًا آدمية وحيوانية وأرواحًا تهيم.

رأى امرأة عجوزًا مكومة على الأرض تستند إلى ركن شحيح الإضاءة على جدار المخزن تحاول بصعوبة إيلاج خيط في إبرة بدا أن نظرها الضعيف لا يساعدها، لا يعرف من أين ظهرت، حاولت أن تنهض فلم تستطع، اقترب منها قائلًا:

«دعيني أساعدكِ».

ضحكت العجوز قائلة:

«يا لك من مغرور! ألا ترى أنك مَن تحتاج إلى العون؟!».

حاولت النهوض مرة أخرى، لكنها لاقت صعوبة. تَردد تلك المرة في مساعدتها، فنظرت له بلوم، قائلة:

«ألم يُعلمك أهلك شيئًا بخصوص مساعدة سيدة مُسنة؟».

«يا للجنون!». تمتم، ثم ساعدها على النهوض. فتبين وجهها، كان جدارية من الدمامل. جفل. ثم تذكَّر أنها محض سيدة عجوز.

كان لها رأس صغير مستدير فوق رقبة عصفور، يتلفت حولها بالكيفية ذاتها، شعر أن بإمكانه ـ بقليل من رباطة الجأش ـ أن ينزعه بيديه، لكن أظافرها استطالت كأغصان متشابكة. تراجع في رعب.

اقتربت منه. كانت لها رائحة كراميل تعصره العفونة، تفحَّصته ثم قالت للكفراوي:

«أهو مَن اخترته للعب؟».

أومأ الكفراوي برأسه إيجابًا. سألته مُتشككة:

«أتظنه سيتحمَّل؟».

قال الكفراوي بلا اكتراث: «سنرى».

قالت العجوز: «اقترب يا فتى.. لا تخف».

«لستُ خائفًا».

«مَن يظن نفسه تلك المرة؟!». وجَّهت سؤالها للكفراوي فأجاب:

«دون كيخوته».

«بل عوليس». قال بصوت مُحتج كطفل. صمد بوجه صلب أمام ضحكاتهما.

اقتربت منه قائلة:

«أعطني ثلاث قطرات من دمك».

«لمَ؟».

«هواية سيئة منذ الصغر.. أن أجمع دماء الحمقى.. أسرع فلا وقت لديَّ. قمر منتصف الليل سيصعد وسأضطر إلى التهامك عوضًا عن مساعدتك».

نظر إلى الكفراوي مُستغيثًا، فأمره أن يمتثل فأعطاها يده. قالت العجوز:

«يا للرخص.. ألن تُبدي قليلا من المقاومة؟».

طلبت أن يخلع قميصه ففعل. أمرته العجوز أن يستدير، تأملت ظهره العاري لثوانٍ، ثم أطلقت شهقة. أمسكت بخصيتيه، تحسست ما بين فخذيه، أدار لها وجهه المحمر خجلا، غمزت العجوز له غمزة مقززة كنوع من الغواية.

تجاوز نفور وخجله وسألها:

«هل أنتِ فاطنة؟».

«هل تريدني أن أكونها؟».

لُذت بالصمت. قالت ساخرة:

«هل تظن أن من السهل أن تراها؟ لا أحد يرى فاطنة إلا مختار».

تدخل الكفراوي قائلا:

«مثلي».

قالت العجوز: «أما زلت تتمسك بذلك الوهم؟».

«لم يكن وهمًا»، قال محتجًا كطفل، وصمد بوجه صلب أمام ضحكاتها وضحكات الأعور.

قالت العجوز بصوت كالفحيح:

«من المحزن دومًا تشويه جسد جميل». ثم نشبت أحد أظافرها الطويلة بباطن يده، كانت كنصل سكين. حرَّكته كأنها تنقش شيئًا. جاهد كي لا يصرخ، أخرجت قارورة صغيرة، سكبت بها ثلاث قطرات من دمه.

«أذاك تعميد أو ما شابه؟».

قال الكفراوي:

«بل عهد».

«لا أفهم».

«أتعرف إلى أين نتجه؟».

«إلى مكان يحوي سرًّا بالغ الخطورة».

«هي بالفعل كذلك. حضرة في بيت فاطنة، أقيمها كل عام من أجل أشباح الأسلاف من الكُتاب، أقراني من العظماء، حضرة للخالدين، أُسكرهم بأجمل نبيذ في العالم، نبيذ فاطنة، أطعمهم بأشهى طعام في العالم، ذلك الذي بُورك بأنفاس فاطنة، يتمرغون بين أحضان بناتها الأجمل على الإطلاق، يقضون الليلة في السُّكر والعربدة والذِّكر الإلهي الفريد، يكلفني الأمر ثروة، لكن الأمر يستحق، الأسلاف ضِعاف فيما يخص الفلكلور».

«وما الفائدة؟».

«توُدّي إليهم قد يحميني من عقاب النبذ والنسيان، ويجدد داخلي جذوة الإلهام، لقد قدمت قرباني، تفرغت للكتابة، تنازلت عن منصبي كمُشرف على سلاسل الهيئة كي لا يشوش رؤيتي زيف المدح والقدح المرتبط بنفوذي، لكني لا أضمن شيئًا، قد يفاجئني الموت أو الجنون قبل أن أنتهي من كتابة ملحمة تُدعى المشاء العظيم، الرهان مُخيف».

«وما حاجتك إليَّ في حضرة كتلك؟! لم أكتب رواية واحدة بعد».

«بل فعلت».

استدار إلى العجوز قائلا:

«ست روايات. اثنتان ممتازتان، واثنتان جيدتان واثنتان لا

تحظيان بالانتشار إلا بعد وفاة مؤلفهما عندما يكتشف قلة من القراء أنهما كانتا الأفضل، فتظل شهرتهما حكرًا على صفوة مغرورة قبل أن تتناقلها الأفواه ويبحث الصفوة عن عبقري آخر يقذفونه إلى العدم».

«باسمك؟».

«باسم محمد الأعور».

«ما نوع الروائي المطلوب.. شخصية حقيقية، مُتخيلة، هجين؟».

تردد قليلا، ثم قال:

«مُتخيلة».

نظر الكفراوي إلى الأعور قائلا:

«هنا آلاف الروايات العبقرية والجيدة والمتوسطة والرديئة، بعضها لكُتاب معروفين وبعضها لكُتاب دُفعوا إلى حفرة العدم. الماكينة تخلط ما طنطنوا به من أطياف الحبكات والجُمل التائهة لتنتج الروايات بالجودة التي تطلبها. تأليف جماعي من جوقة الذاكرة وكورال النسيان».

«أنا كاتب، مثلك تمامًا. لا حاجة لي بروايات مُقلدة».

«ما أمنحك إياه أفضل حتى مما حلمت به عندما قررت أن تسرقني».

«لست لصًّا».

«خذ الروايات.. هذا قرباني لك».

«كي لا أسرقك؟».

«بل لتساعدني على النجاة».

تأمله الأعور، للمرة الأولى ينكشف له ما تحت قناع الهيبة، رجل يائس بالغ الهشاشة، كل خلجة فيه تكاد أن تتوسل.

«اليوم مناسبة خاصة، سيحضرها رجل عزيز على قلبك، وتقام الحضرة ذلك اليوم على شَرفه. حفل عزاء وتكريس».

«مَن؟».

«جابرييل جارسيا ماركيز».

«لكنه لا يزال حيًّا».

«الذين أصابوا الخلود أثناء حياتهم يعرفون موعد موتهم قبلها بفترة كافية، ولا يزعج النبأ سوانا، فالموت هو احتفالهم الكبير بتكريسهم النهائي ككُتاب عظام بين العامة. حين يحين موعد تعميده بين الأسلاف يحدث طقس روتيني، أن يصرخ المكرس على طريقة فتوات الحرافيش، وفرسان دون كيخوته: هل هناك مَن يعترض على تنصيبي خالدًا؟ لم يحدث مرة أن تقدَّم أحد للاعتراض، لكني أنوي تغيير الأمور؛ لذا أنا في حاجةٍ إلى مُساعدة شاب شجاع مثلك، له قلب لصّ على استعداد للقتل، فأنا لا أضمن الفوز».

«ماذا سيحدث لو فشلت مقامرتك؟».

«سأخسر كل شيء، وسأُلعن بالنبذ والنسيان، الأمل الوحيد في تجنُّب هذا المصير إن خسرت مقامرتي هو أنت».

«كيف؟».

«بعد أن تنعم بالشهرة التي ستجلبها لك الروايات، ستجد طريقة لإنقاذي من العدم».

لاذ بالصمت ليفكر، ثم قال:

«سأساعدك بشرط».

«ما هو؟».

«أن تكف عن ملاعبتي، أن تمنحني الأسرار لا القشور».

«موافق».

«ما المطلوب؟».

«أن تكون مُنتبهًا في اللحظة الفاصلة».

شعر بالألم يتزايد في باطن يده، نظر إليها وقد تشكَّل شيئا فشيئا النقش الذي رسمته العجوز، زهرة صفراء، زهرة النار.

سارت العجوز نحوه وهي تحمل القارورة إلى ماكينة طباعة ضخمة، ثم سكبت قطرات دمه فسالت حبرًا، ظلت تهرس كتبًا وتعصر حروفًا، تخلطها بقوة لكن بلا صوت.

في أقل من عشرين دقيقة، كانت الماكينة قد أطلقت ستة كتب، غلفتها العجوز في صندوق، حملها الأعور في حقيبة ظهر، غمزت له، ثم أطلقت ضحكة مريعة كدوامة سرعان ما زأرت في وجهه ساخطة، ثم اختفت. تبخرت في الهواء، كأنها لم تكن.

* * *

«لا أحد رأى بنات فاطنة.. لا أحد رأى فاطنة» ظل يردد ذلك لنفسه كي يطمئنها، حتى وصلا إلى بيت مُسوّر بأكمله، على بوابته يجلس شاب يرتدي جلبابا أخضر، كان ذا قامة قصيرة وقوام هش وذا ملامح أنثوية بعض الشيء. قال الكفراوي.

«كيف حالك يا سمير؟».

«مَن هذا؟».

«زبون جديد».

تمعَّن في جسده من أعلى إلى أسفل، ثم فتح فمه وتفحص أسنانه، ثم حدقتَي عينيه، ثم باطن يده التي تحمل نقشًا حديث العهد، تأمل أصابعه الغليظة، ثم صاح: يا لطيف!

ارتبك.

«أتقسم برأس فاطنة أنك لن تفشي أسرار البيت».

«أقسم».

«مرَّتك الأولى مع امرأة؟».

أومأ نافيًا برأسه، رغم أنها كانت مرَّته الأولى بالفعل، لم يتخطَّ ما بينه وبين بعض الفتيات سوى القُبلات في ذلك العهد.

«أو رجل؟».

قالها بنبرة تتراوح بين الخلاعة والأسى، فكوَّر الأعور وجهه كلكمة، محرجًا ومرتبكًا من اضطراره لتكلف الغضب.

«ربما تخرج الليلة من هنا وقد عرفت على الأقل كيف تحتفل».

أخرج من جلبابه سلسلة مفاتيح ثقيلة، أولجها بقفل البوابة الضخمة المغلقة، فتح لهما، ثم قرص الأعور من مؤخرته، فانتفض، صاح الرجل: اذكر الله. تماسك، لقد اقترب من سر الأسرار، لن يفسد الأمر من أجل شيء تافه.

كان البيت ساحة كبيرة، مُحاطة كلها بغُرف، أبوابها خشبية لها طلاء أحمر مشقوق، عدا غرفة واحدة، بابها بلا طلاء، مقبضها كترس. تقام في الساحة حضرة يختلط فيها ذكر الله بصوت الست أم كلثوم، وبهجة الابتهالات بصخب المومسات، وشرب الخمر الإلهي بالعرق المصنوع من كروم النخل.

«أين الأسلاف؟». تساءل، لا أحد هنا سوى وجوه خُلقت للنسيان.

سمح سمير للكفراوي بدخول إحدى الغرف ومنع الأعور من أن يتبعه إلى غرفة مماثلة، طلب منه أن يجلس ليذكر الله حتى تأذن «الست» له بالدخول، ففعل حتى خرج الكفراوي بعد ساعة مرت كأنها الدهر أو دهر مرَّ كلمح البصر. كان يرتجف، مُبتلًا كعصفور وهو يهتف: «اذكر الله»، ثم انضم إلى الحضرة التي كانت تردد بصوت بديع: «يا لطيفًا لم تزل.. الطف بنا فيما نزل، يا لطيفًا في الخفاء الطف بنا في القضاء»، فيسكن الضوء، ويهرب الثعبان، وتهدأ الريح، ويأنس الشيطان، ويُروض الرجل، وتتنفس الأنثى.

جاءه سمير، همس في أذنه:

«لقد أذنت الست.. فلتتخير قدرك».

اختار الغرفة التي لا تحمل طلاء. فقال:

«لا أحد يختار تلك الغرفة، بل هي مَن تختار صاحبها».

أشار إلى غرفة أخرى على نحو عشوائي. دلف إليها بخطوات وجلة ترغب في الرجوع القهقرى.

كانت الغرفة مظلمة قليلا، باردة. لكن الدفء تسرب إليه عبر أنفاس ملتهبة، أتت من خلفه امرأة. كانت تضيء، عبر عينين بديعتين رغم أنهما لا تتسمان بالاتساع ولا حور بهما، أمسكت يده وعبرت به بخفة إلى الفراش.

عندما تأملت ظهره العاري، همست:

«يا الله. أيُعقل هذا؟ السمرة المثالية والبدن التام».

اندفع نحوها، تسوطه الحمى والجوع. لم يفكر كثيرًا، عبَّ من الحياة كريح عفية، بلا اكتراث للعواقب.

همست في أذنه أن صفاته ذُكرت لبنات «فاطنة» من قبل. سألها: صفات مَن؟ فأجابت:

«لعلَّه أنت. سيد الغواية الذي انتظرناه طويلا. كل ما عليك أن تفعله هو أن تظهر وتغيب لترطب بالشهوة الباردة ألسِنَة الكون، وسيلتك الخنوثة، ولقد نُذرتَ لمهمة ثقيلة».

«أي مهمة؟!».

«مهمة قتل».

«لستُ بقاتل».

تنهدتْ ثم قالت بحسرة:

«لا نصيب لنا بك، سترغب بك الست لنفسها».

«ما اسمكِ؟».

«كريمة».

ثم أشارت إلى أثر خيط نحيل وباهت في رقبتها المقطوعة على يد زوجها فحاكته «فاطنة» بنفسها على جسد ميت بُثَّت فيه الحياة. لم يجزع، بل هي مَن جزعت عندما حدقت في عينيه طويلا.

لما انتهى خرج من الغرفة مغسولا ومُبتلًّا كعصفور، انضم إلى الحضرة، صارخًا:

«اذكر الله».

عبَّ من نبيذ فاطنة وذكر الله. غاص في الحضرة وانتشى مع أغاني الست. حتى إنه لم يعد يفكر بشأن مصيره أو العهد، لكن مع الوقت فقدَ الرغبة في الذِّكْر، ولم يحل في عينيه أي شيء سوى الغرفة المحرمة التي لا يدخلها أحد.

بدأ الأسلاف في التوافد. رأى دانتي وبورخيس ولوركا ونجيب محفوظ وبوكوفسكي وكافكا، ورجلًا ضريرًا عرف أنه أبو العلاء

المعري، وقطبًا من المتصوفة عرف من الكفراوي أنه الإمام الجنيد.. وآخرين لم يُميزهم، لم يحضر سيرفانتس. لما سأل عنه الكفراوي أجاب بأنه توحَّد مع جنون دون كيخوته فصارا شيئًا واحدًا، بل إن البعض يؤمن أن سيرفانتس كان هو المختل الحقيقي لا دون كيخوته، وأن ما رآه بطله كضلالات وهذيان، ليس إلا قناعًا لما رآه هو بنفسه وآمَن بوجوده، لكن بتلك الطريقة تمكَّن من إخفاء جنونه وحظي بالرضا الاجتماعي وأفلت من حرقه حيًّا بتهمة الهرطقة أو قذفه في جوف مَشفَى للمجانين، لكن ما يؤمن به الكفراوي نفسه هو أن سيرفانتس لُعن بأن يواصل سفرًا أبديًّا من نص إلى نص، أن يعرف صاعقة الموت والحقيقة ليبعث في مدار جنون جديد، بذاكرة ممحوَّة تتكرر فيها دورة الضلال والألم عينه.

توقف الأعور عن العد والأسئلة، لكنه لم يتوقف عن الانبهار، لم يكن الأسلاف أشباحًا أو أطيافًا، بل أجساد يمكن الإمساك بلحمها الحي، حقيقية وعادية، لكن في أعينهم أريج خافت للعظمة، لا يشبه تلك النظرة المتعسفة والمتغطرسة في عينَي الكفراوي أو أيٍّ ممَّن قابلهم من الكُتاب، بل يشبه الطمأنينة والهدوء والألفة واللذة المتقشفة.

انفتح الباب بالضوء الذي سبقته موسيقى وخيالات لظباء ملونة بحجم الكف، فدخل ماركيز الشهي والجذاب. قال بصوته الضاحك والرنان:

«أكتب لأمتع أصدقائي».

قال بوكوفسكي:

«ألن تكفّ عن تلك الكذبة؟».

«وكيف يصبح العالم إذا توقف الكذب؟ سيصبح كئيبًا وخاليًا من الإلهام كوجهك».

انضم الأسلاف إلى الموائد، أكلوا وشربوا بنهم، حتى أبو العلاء الذي عُرف عنه الزهد في الطعام وأنه لم يقرب اللحم، كان أكثرهم انغماسًا.

جلس في طاولة بعيدة منبوذة مع الوجوه المنذورة للنسيان الذين تحولوا من ذاكرين إلى خدم، لكن الكفراوي دعاه للجلوس على طاولة الأسلاف، وقدمه إليهم كتلميذه الذي يعده ليخلفه، لم يُخفِ الأعور تأثره، أخبرهم أن اليوم صدرت عن إحدى المطابع روايته الأولى، هنَّئوه دون حماس، ثم أغفلوا وجوده.

كان الأسلاف يعاملون الكفراوي بجلافة وازدراء، السبب الوحيد لجلوسه بينهم هو أنه مضيفهم، كان يُطعمهم بنفسه، ويكاد لا يقرب الطعام أو الشراب.

قال بورخيس:

«لم أذُق في حياتي ألذ من نبيذ فاطنة، أنا على استعداد لأفعل أي شيء من أجل نبيذ كهذا».

قال نجيب محفوظ ضاحكًا:

«ما أجمل طعم الرشوة!».

«يعلم الكفراوي أن الطعام والنبيذ والنساء، ليسوا كافين لإقناعنا

بأن نجدد له جذوة الإلهام». سأل بورخيس: «ما أخبار مشائك العظيم؟».

قال الكفراوي بنبرة تراوحت بين التودد والنفاق:

«أواصل الحفر».

«فلتتدرب على محو الأثر».

«أيملك أحدنا أملًا سوى انتحال النغم! كل ما أطمع فيه هو انحراف صغير».

تدخَّل بورخيس قائلا: «نعم، فالانتحال مسألة شديدة الجدية».

عقَّب دانتي:

«يستحق أولئك الملاعين الذين أساءوا إلى فن الانتحال وجروه إلى تفاهة تزييف العلامات، أنشودة إضافية في الجحيم. لقد جعلوا منه فنًّا للتقليد والنسخ، وسِيركًا لمحاكاة الرغبة دون أن ينتج ذلك شرارة الرغبة. مُقلّد ينسخ عظيمًا، ثم ينسخه مُقلّد، ثم ينسخه مُقلّد آخر... يظنون عبر حفظ الوصفة أنهم تفوقوا على الأصل، لا يمكن تقليد كاتب عظيم إلا عبر إعادة انتحاله في تراكيب مستقبلية جديدة، سوى ذلك فلن يبقى إلا تكاثر الأرانب في بَلادتها».

قال كافكا موجهًا كلامه للكفراوي:

«لديَّ فكرة قد تساعدك.. اجمع كل حرف كتبته، وأشعل فيه النار، ما يتبقى هو فقط ما يصلح للبقاء».

قال نجيب محفوظ:

«إن فشلت، فالعرض الذي قدمناه إليك ما زال قائمًا».

أجاب الكفراوي:

«لست بقاتل، سأتشبث بفُرصتي في محو الأثر».

قال ماركيز:

«أين العاهرات الحزينات؟».

«حالًا».

توجه بعض الكُتاب إلى غُرف بنات فاطنة. فعل الكفراوي مثلهم، لكن الباب الذي اختاره، باب فاطنة، ظل مُوصدًا في وجهه. أما الباقون، وعلى رأسهم بورخيس، فضّلوا مواصلة السُّكر.

عندما خرج نجيب محفوظ الذي ألتهم ثلاث نساء وحده، حدق في عينَي الأعور قائلا:

«أنت تعيس جدًّا يا بُني!». ثم تركه وعاد للانغماس في اللهو.

واحد منهم فقط كان شارد الذهن، بدا للأعور كمُتسول سكران، رث الهيئة يرتدي جلبابًا ممزقًا بالغ القذارة متشحًا بأكمله بشحم الطريق وسواده كأنهما شيء واحد، فبدا بياض عينيه الجاحظتين كأنهما بوابتان لرعب مقيم، لم يشارك في الطعام وإن لم يتوقف عن الشراب من نبيذ فاطنة ولا الثرثرة الشاردة عن رحلته:

«البحث عن أجمل حكاية في العالم. دائمًا تلك نزوة سلطان،

انتهى أن كل مُلكه لا يساوي إلا جدرانًا من السأم؛ لذا بُعثت أنا وألف رسول سواي في الأسواق والمدن والبلاد البعيدة، كي نأتي له بأجمل حكاية في العالم، وكنت حكيمًا بما يكفي لأعرف أن أجمل حكاية في العالم، لم تُروَ بعد، لن تُروى أبدًا، وأن تلك الرحلة بلا طائل، إلا إذا لفقت له واحدة، لكنها حية تجدد نفسها بنفسها، لا تموت، لأن سَيَّافها يقصمها عند رقبة الذروة قبل أن تكتمل، هكذا تُوقظ في السلطان كل الرغبات وتدفن في روحه الرموز التي إن لمحناها مرة فإنها لا تُنسى، لكن في حضرة الملوك لا شيء مضمون؛ لذا كان عليَّ أن أواصل رحلة أبدية من سوق إلى سوق، ومن مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى بلد. ليس سعيًا وراء أجمل حكاية في العالم، بل هرب منها ومن قصمة السَّيَّاف حتى يتحول الملك من مُستمع إلى حكاية، ربما حينها أعود آمنًا».

فهم أن الشحَّاذ يظن نفسه ماركو بولو في حضرة قبلاي خان، إذ لم يقطع أي مسافة إلا في خياله، وقد عبَّ من نبيذ فاطنة الحلو، الذي لا مثيل له، لكنه عرف أنه إيتالو كالفينو بنفسه، لكن دون هيئته، كان الوحيد من بينهم الذي لا يملك هيئة ثابتة، ولم يعرف إن كان ذلك هِبة أم لعنة، فلما سأله عن السر قال:

«لأن روحي فم جائع، حفرة لا تردم، إن لم تجد شيئا لتطعمه، ألقمتها قطعة من جسدي، التقط شفاهًا وأصابع، أطرافًا مبتورة، حركة، ملمحًا، أشباحًا، جفافًا في الفم كان في الأصل تنهدات حارة، حصى كان في الأصل آمالًا عظيمة، أقفال غرقت مفاتيحها في جوف بحر، ومفاتيح يتيمة الأقفال، أعقاب أرواح ذابلة، أفواهًا ملطخة بعار

ما. في انشغالي بجمع أجزاء الوجود المفكك، تشقق جسدي بغتة كزجاج، تجاهلت نذير الصدع، حتى صار شروخًا. كيف أتوقف عن نسخ الأرواح داخل جسدي؟ عن تجريب ملايين الوجوه فوق وجهي حتى صار وجهي غير مرئي؟ لكن ما الرهان، سوى أن قربان الفن الوحيد المقبول، هو حياتي بأكملها، محروقة القلب والحواف!».

تعالى صوت الكفراوي باكيًا متوسلا أمام باب الغرفة المحرمة الذي ظل موصدًا في وجهه:

«اغفري لي يا فاطنة، لقد فعلت كل شيء لأحظى بوصلكِ مُجددًا، تنازلت عن كل سلطة وراهنت اللاشيء، لا أرغب إلا بلحظة وصل قصيرة يعانقني فيها شبحكِ، فتُكسى مُخيلتي لحمًا ودمًا».

تجرأ الأعور قليلا وأخبر كافكا أنه لم يكن يتخيلهم أبدًا بتلك الخفة.

فرد بحزن:

«أي لعنة! كنا نأمل في لطف السريان لا ثقل الخلود الذي يجعل منا مجرد أشباح مُقيدة بسلاسل غليظة في قبو».

تدخل دانتي قائلا:

«لهذا نقبل دعوة الكفراوي للعربدة في بيت فاطنة، اليوم الوحيد في العام الذي يسمح لنا فيه بالتحرك بحرية خارج الصور وأن نتصرَّف بسذاجة».

خطر للأعور أن يسأل: «لمَ إذن يستبعدون الكاتبات النساء من

حفلهم؟ أتلك علامة تقلُّل منهم؟».

قال كالفينو: «لسنا هنا بوصفنا كُتابًا، الكفراوي هو مَن يتصور أن حفلا كهذا أعد لتكريم الأدب، بينما لا نراه أكثر من نادٍ لرجال لا يرغبون سوى في اللهو في جماعة، وهو ما يرُدنا إلى حقيقة أن الرجال في الجوهر، ومهما بلغ قدرهم أو أنضجهم الموت.. تافهون».

قال الأعور: «هذا مُبتذل»، فقال: «وجميل»، ثم طوح رأسه كدرويش وانخرط في الذِّكر:

«يا لطيفًا في الأزل.. الطف بنا فيما نزل، يا لطيفًا في الخفاء الطف بنا في القضاء».

لم تفتح فاطمة بابها الموصد، فتكوم الكفراوي أسفله لا يكف عن الطَّرْق العاجز والبكاء كالأطفال.

تأثر دانتي وأنشد:

«مولاتي تحمل الحب في العينين، اللتين عَبْرهما يصير كل ما ترنو إليه راقيًا، حيث مرتْ كلُّ امرئ إليها يلتفت، ومَن ألقت عليه التحية قلبه يرتعد إلى حد أنه مُخفتًا أنظاره، يصير كله يلتفت، ومن أخطائه يتأوّه، ومن أمامها يهرب الغضب وتهرب الأنفة».

قال بوكوفسكي ساخرًا: «ليست كل امرأة باتريشيا».

قال دانتي: «ولا كل عاشق هو دانتي، لكن في ذل كل غرام حج وارتحال إلى خارج حدود الذات، أليس هناك تقع الكتابة؟».

قال لوركا: «بل روح الأرض».

نطق الإمام الجنيد للمرة الأولى: «بل الله».

علق بوكوفسكي: «لم تره حيًا أو ميتًا. كيف تؤمن بما لم تره؟».

قال ماركيز: «بطريقة أو بأخرى يؤمن كل الحكّائين بوجود إله، لأن لا بد لكل هذا الهذيان من خالق».

أجاب الإمام: «لا أحد منكم رأى فاطمة، ومع ذلك تؤمنون أنها مصدر إلهامكم».

قال بورخيس: «أتفق مع الإمام في شيء واحد، أثق أن كلنا وسطاء لتأليف الكتاب نفسه، مئات الأيدي لمؤلف واحد مجهول، لا تُقيده هوية أو زمن، لا يعنيني اسمه، أما فاطمة فلم يجدد أحد إيماني بذلك المؤلف قدرها وقدر كتابها اللانهائي».

قال كالفينو: «فاطمة هي الحكاية والمحكي عنه، وكلنا ذكر مهووس يُروى عليه فيبطل أثر سيافه».

تعالت نهنهة الكفراوي، فقال كافكا مشفقًا: «لن يُجدي التوسل، إنه حبيس ذاته».

قال محفوظ: «ربما لا أمل له إلا ما عرضناه عليه، من العجيب أن يرفض ما أجمعنا جميعًا على رؤيته، حيث تكمن هبته الحقيقية، مهمة أكثر قداسة وجلالًا من كتابة رواية خالدة».

علَّق كالفينو: «بجسد عجوز كهذا، أشك».

قال بورخيس: «الكل يطمع في أن يكون سيرفانتس، أفكر أحيانًا

أن روايته دون كيخوته لم تكن أكثر من مجرد خطأ تاريخي، كان كل سعينا محاولة غير مُجدية لتصحيحه».

قال كافكا: «قد تخجل الرواية أخيرًا من كذبتها، عندما تصبح مُعادلًا للانحطاط لا قمة هرم الوجاهة في الأدب. حينها قد لا تكتب بدافع الأمل، بل اليأس من إيجاد شكل آخر للتعبير، فتعود فنًّا للضرورة».

قال بوكوفسكي: «ربما لو قبلَ الكفراوي بالمهمة».

قال كافكا: «لا بد من مباركة فاطمة في كل الأحوال» ثم همس لنفسه:

«لكنْ لا أحد رأى فاطمة».

حانت الساعة الكبرى لتعميد ماركيز فانتبه الكفراوي.

التفَّ الأسلاف حول صخرة في قلبها سيف من زمرد، ودون خُطب عصماء تقدَّم ماركيز لينزع السيف. قبل أن يفعل قال:

«هل يعترض أحد على تكريسي ضمن الخالدين؟».

قالها باعتيادية مَن يعلم الإجابة.

هتف الكفراوي: «أنا».

تحلَّقت عيون الأسلاف في دهشة، تعالت همهماتهم المعترضة. لكن ماركيز جابهه في استخفاف:

«فليَحسم السيفُ الأمر».

تقدم الكفراوي نحو الصخرة، حاول نزع السيف لكنه لم يستطع. تقدَّم ماركيز بأبهة وزهو وسحبَ السيف في سهولة دفعت الكفراوي إلى أن يصرخ في جنون:

«لا تستخفّ بي.. فأنا أملك عزبة فاطنة، أملك الخرافة والجنون والعاهرات والحراس».

«لماذا أوصدتْ فاطنة بابها في وجهك إذن؟».

كرَّر كافكا كالمسحور: «لا أحد رأى فاطمة».

من فوق سور البيت، برز رجال مُدججون بالسلاح قفزوا إلى الساحة واحتلوها وانضمت إليهم الوجوه التي خُلقت للنسيان من الذاكرين، قُطاع طُرق وبلطجية وعشاق يائسون تنكَّروا كخدم، فأدرك الأعور الخدعة، الكفراوي يقيم مجزرة لأسلافه مُستلهمًا محمد علي، لكنه لم يفهم فيمَ احتاجه! حاول بعضهم الهرب، لكن الأبواب كانت موصدة.

قال محفوظ للكفراوي:

«أنت تفسد قربانك يا فرج».

«لن أسمح لعصبة من الموتى أن تحرمني الخلود».

حاصر المسلحون الأسلاف وقيّدوهم إلى حائط بسلاسل غليظة.

أخرج الكفراوي ورقة ليُجبرهم على التوقيع عليها بشأن استحقاقه للخلود بدلًا من ماركيز، لكنهم رفضوا بعناد.

صرخ بهستيريا:

«سأقطع أيديكم لأحصل على أي توقيع أردت، إقرار بأني الكاتب الأعظم في العالم على مر العصور، بعدها، سأقطع رءوسكم وأدفع بأجسادكم للكلاب، لن أحتفظ سوى بحناجركم».

قال كافكا:

«ألم أخبركم أننا لا نُلهم سوى المسوخ والمجاذيب؟! هذا جزاء عادل».

استعد أتباع الكفراوي لتنفيذ تهديدهم، قبل أن يفعلوا، فُتحت غرف بنات فاطنة، عدا غرفة واحدة بدون طلاء ويميزها مقبض له هيئة الترس، وكانت كريمة بينهن، لم يكُنَّ يحملن أسلحة، لكنهن ظهرن كأشباح برءوس مذبوحة وأجساد بلا رءوس تغطيها الدماء. ألف امرأة بألف ليلة، فتولى العصبة الرعب. تركوا أسلحتهم ولاذوا بالفرار، فكت البنات قيود الأسلاف، سخر ماركيز من الكفراوي الذي أصر على إنكار ما يحدث. اندفع فرج نحو تلميذه الأخير، أمسكه من رأسه وجره جرًّا بكل ما في جسده من حقد وغضب.

قال بورخيس:

«ألم تقتنع بعد أن رأس فاطنة لن تكفل لك الحماية؟».

تجاهله الكفراوي، اندفع بالأعور نحو الباب الموصد:

«ها قد عُدت يا فاطنة، حاملا قربانكِ، فلتأخذي رأس عبدكِ ولتمنحيني ما أردت».

تراجعت بنات فاطنة وسجدن للأعور «سيد الغواية»، وهو ما لم يفهمه. أهذا ما أراده من أجله؟ قربان على مذبح عظمته المتوهمة!

انفتح الباب، رغمًا عن الأعور وبإرادته دخل، واجهته الظلمة ورائحة عطنة مُحملة بروث الفئران، تحملها، انبلج طيف خفيف أبيض، ثم رأى طيفًا لرأس يجوس في الغرفة وسط تهليل الأسلاف على كرامة ظهورها، مُكافأة اليقين أن فاطمة لم تكن محض وَهْم نسجه خيالهم، لكن رأس فاطمة نظرت له بقوة كأنها تجلت له وحده دونهم. اختفى العطن والظلمة، وبرزت رائحة شواء قوية وحلوة وبزغ ضوء له زرقة البحر وعنفوانه، كاد أن يقترب، وكانت تغني. اشتهاها كأنها الحل لكل عذاباته، لمشواره الطويل عاريًا تحت سياط الشمس.

طاف الرأس حوله. تشمّمه ولم يتوقف عن الغناء بصوت لم يميز إن كان جميلا أو قبيحا، لكنه كان مخيفا ككابوس. فجأة وجد نفسه خارج الغرفة التي أوصد بابها بعنف. ركع الكفراوي في يأس، بينما اندفعت بنات فاطنة نحوهما وضعوا رأسيهما تحت رحمة سيف ماركيز الجاهز للإطاحة بكليهما.

قال بورخيس:

«قتلهما ليس عقابًا كافيًا.. كيف جفَّ خيالنا لنكتفي بقطع رأسيهما؟».

قال أبو العلاء:

«ماذا تقترح؟».

قال دانتي بهدوء، وقد وجد أنشودته الناقصة:

«أن يعيشا طويلا كتِنينَيْن منبوذين سنحدد إقامتهما ببيتهما، منفصلين عن العالم، بذكريات مخلوطة متوهمة، يظنان أنهما وصلا إلى الخلود والعظمة بالفعل حتى يأكلهما الموت».

قال نجيب محفوظ:

«وما ذنب الفتى؟».

أرخى ماركيز يده:

«أوافق.. وأرى أيضًا أن الفتى خُدع مثلنا بالضبط».

أوكلت مهمة تحديد إقامة الكفراوي في منفاه وإلقاء التعاويذ اللازمة إلى سمير، قبل أن يغادر نظرَ لتلميذه متوسلًا، يستوثق من العهد.

صاح ماركيز في أبهة:

«هيا فلنستكمل الحفل. ولنعوض هذا الشاب عما رآه من المسخ الذي جرؤ على طلب الإلهام والخلود بزجاجة نبيذ».

قال لوركا: «كل الحمقى من أمثاله لا يدركون أن ما يبحثون عنه لا يصدر من الحنجرة، بل يطفر من أخمص القدم.

سكروا وتلاطفوا. أخبر بورخيس الأعور:

«لثوانٍ ظننتك المنذور للمهمة المقدسة التي نرتجيها جميعًا ورفضها الكفراوي».

أزعجته النظرة الهازئة المستخفة التي رمقه بها بورخيس والتي أدرك منها أنه غير مؤهل للمهمة الغامضة التي رفضها الكفراوي، لكنه سرعان ما اندمج في الحفل وتجاوز معهم السُّكْر إلى العربدة، فانتهى به الأمر وقضيب بوكوفسكي في فمه، وبمؤخرته قضيب كتاب قديم ومطلسم، له سمت أبي العلاء وهو يمازح الجحيم بالغفران.

كانت حفلة رائعة، تفتَّحت روحه لتشرب الفيض، لكن القيء كان مزعجا، وحُكم عليه بأكله، لكن بوكوفسكي انبسط وتسلطن وأحرق الكتاب المطلسم في مزحة متهتكة، وصار أبو العلاء جنيًّا كبيرًا، فوضعه الأعور في قنينة بالخدعة ذاتها التي تنطلي على عفاريت سليمان: خطيئة الغرور، فأعجبت الخدعة بوكوفسكي، خرجا وحدهما من بيت فاطنة نصف عراة وألقيا قنينة أبي العلاء في الشريط المائي الذي يسمونه زورًا بالبحر العظيم.

لم يعلم الأعور إن كان السُّكْر أم الحماقة هو ما جعل فكرة تكرار طموح الكفراوي شهية في عينيه، متجاوزًا خطأه، أي أحمق يدبر مجزرة للأسلاف، يكفيه التهام جسد عظيم واحد.

انتظر حتى غفا بوكوفسكي من التعب على شاطئ البحر، ثم طعنه، تمهيدًا لالتهام سر روحه، لكن جسده تشقق عن بورخيس، مرتديًا خرقة الإمام الجنيد، ويحمل سراجًا يشق الظلمة بيد وشارة الولاية بيد، تقدم نحوه بعينين هادئتين مُخيفتين وخاليتين من الغرض ليسلمه الشارة، لكنه أسلم ساقيه للريح ولاذ بالفرار وهو ينتفض من الرعب، حتى بلغ شجرة الجميز العتيقة، كانت أصوات الحضرة عالقة في أذنيه بهمس كالفحيح: «يا لطيفًا لم تزل.. الطف بنا

فيما نزل».

جلس وحيدًا يبكي ويرتجف تحت الشجرة. فتح الحقيبة وتأمل الروايات الست، لا شيء في ذهنه سوى تلك الذكرى الطفولية عندما رأى الكفراوي للمرة الأولى في معرض الكتاب واشتهى أن يكون مثله ملكًا يسجد لسطوته الكُتاب والقُراء، تلك الكذبة التي تكشف له عمق بؤسها وتفاهتها في الحفل، كانت هي كل ما يملك، لا أمل له إلا بإحاطتها بألاعيب النسيان وقداسة الخرافة.

وقف ليقلده، رأى الجماهير أمامه، لكنه لم يكن سيدها تلك المرة، بل مخلصها، نظر إلى الحشود، آلاف المنتحلين المهزومين، آكلي الفتات والحشائش، العاديين البررة، المهرولين بلهفة إلى هاوية الجحيم. ربما عندما ينتهي من رحلته، قد يساعدهم على إنجاز انتحال لا يُكشف، كي يهبهم الخلاص من السادة، يحرر الرءوس الدائخة من المتاهة، والأرواح المدفونة تحت وطأة ألم وحشي ينهشها.

مسَّد رءوس المنتحلين المهزومين، باركهم ووعدهم بالضوء، ومملكة السماء على الأرض، الكل مقبول فلا يملك الصالح نجاته بصلاحه ولا طالح يخشى الاقتراب. أشعل سيجارة وهمية، دخن الصبر، أطفأه، وطير العقب نحو الحشود كبَركة. التقطه أحدهم، دخنه باستمتاع. تنطلق الألعاب النارية في السماء احتفالا بقدومه، وتضيء الأنوار وتطير الظباء الملونة، يسمع تهليلا، يمر ضوء كالشهاب يستقر في روحه المظلمة فيضيئها.

أخرجه صوت من لوثة أحلامه، رأى شبح فاطمة أمامه، يجوس في الظلمة بحثًا عن حبيب ضائع وهي تحمل فأس الجبروت، لم تكن وحدها، كان بجوارها هاني الديب وصانع الحلوى الذي كان يسجل كل ما دار بآلة الأحلام. رفعت فاطمة فأسها فارتجف وبكى من الرعب، حاول أن يفر لكن جسده كان مقيدا إلى الآلة، أغمض عينيه موقنا بالنهاية، فتحهما على نافورة دم تغرق جسده، ورأس هاني الديب، تلميذه الأخير، تحت قدميه، هل افتداه؟

بدأت فاطمة بالغناء:

«اقترب يا حبيبي، دمك لي. أهبك دمًا طازجًا، فتعيش. منذ ألف عام أو يزيد، وأنا أحيك الضباب وأنتظرك...».

هدهدت الأغنية من رعبه، تأمل رأسها الصغير المستدير فوق رقبة عصفور، ليدرك أن فاطمة لم تكن من البداية إلا حليمة. قابلها عدة مرات دون أن يميز حقيقتها، كذلك فشل الكفراوي في التعرف عليها عندما ظهرت له على شكل امرأة عجوز في مطبعة، وكذلك فعل الديب.

جابهها بنظرة غرام تكاد أن تقتلع قلبه من جذوره، لكن وجهها استحال إلى جدارية من الدمامل، أطلقت ضحكتها المريعة كدوامة ثم زأرت في وجهه ساخطة ودون تردد. أطاح فأسها برأسه، فظل يتدحرج كصخرة حتى بلغ شريط الماء الذي يسميه أهل العزبة زورًا بالبحر العظيم، ليطفو مع آلاف الرءوس التي خُلقت للنسيان.

***

ذراع زوجته العاري والناعم مسدل فوق صدره، أنفاسها الحارة تهدر في تعاقب مُطْمَئن فوق رقبته، فتثير فيه نغزة تؤلمه بالكاد. لا شيء برأسه إلا صداع خفيف في طريقه للتلاشي وظلمة تشقها ومضات خافتة، قلبه صافٍ إلا من حفيف غبار أصفر يعبره. الفراش مشعث ودافئ، كما يليق بلَيلة حب، يتصاعد من الملاءة والوسائد رائحة دم ومنيّ، كما يليق بمعركة، الجنس كما تحبه، عجين لذة وألم، طعان وولَه. يشعر بأثر نصال أظافرها وقد حفرت عميقًا في ظهره، عضات أسنانها وقد سعت للحلم المستحيل لكل عاشق، الْتهام حبيبه.

حرّك ذراعها برفق ثم أزاح الغطاء كمَن يزيح اليد الثقيلة للأمس.

أضاء مفتاح النور الملاصق للسرير. غارقًا في ذهول النعاس انسكبت موجودات الغرفة من عينيه ببطء كأنها تتدحرج مثله من حلم طويل وَعْر. ثريا السقف، الستائر الثقيلة، دولاب الزوجية الذي اختير ضخمًا ليسع حياة اثنين، كان نصف مفتوح وقد استعاد أخيرًا ملابس وأحذية كريمة، وكذا طاولة التسريحة، لا شيء له سوى فرشاة شعر وزجاجة عطر وهاتف وميدالية مفاتيح، لا تكاد تبين وسط حاجياتها، العطور وفرشات الشعر والكريمات وعلب الدبابيس، أدوات ماكياج، مُرطب شفاه، مكواة شعر، منفضة دخان، بها أربعة أعقاب.

تُفضّل كريمة سجائر الكنت الرفيعة، رغم هوسها بكل ما هو صحيّ، إلا أنها ليست مدخنة شرهة على أية حال. تنفث دخانها في الليل، عادة اكتسبتها منه، عندما كانا يتقاسمان السيجارة معًا متكئَيْن على إفريز الشرفة، رغم أنهما كانا يقلدان مشهدًا أعجبهما في

مسلسل House of Cards الذي أحبَّا مشاهدته معًا، إلا أن تلك العادة كانت تزيد من ترابطهما وهما يتبادلان النميمة والأفكار ورسم الخطط لترسيخ قدمه أكثر في المشهد الأدبي في مقابل وعده الغائم بأن يهبها نصف ملكه. ربما عندما توقفا عن تقاسم السيجارة معًا، تفككت عُرى الحب دون أن ينتبه؛ لذا أدام النظر طويلا في الأعقاب المطبوعة بأثر رُوج شفتيها، شفتَي حبيبته، كأنها الدليل الدامغ الوحيد والكافي على أنه استعادها، لا جسدها الذي يقاسمه الفراش ولا ملابسها أو أشياءها التي تحتل الغرفة.

تأمَّل وجهها الذي تسري به ابتسامة راحة وشيء من شحوب الملائكة. تنهَّدت ثم تقلَّبت في الفراش، فأزاحت الغطاء كاشفة عن جسدها، كان لينًا ممسوسًا ببخار رطب، كأنه استعاد نداوة الليلة الأولى، لا شيء يعادل جمالها في تلك الليلة، شيء نفيس لم يتكرر إلا الآن فعادت مُشتهاة كأغنية صاعدة من الدم، وقد ارتد إليها شذا الرائحة التي طالما لفت أنفه ودوخت كيانه والتي حملت عطور لذات ظلت طويلا حبيسة جسدها، كخبيئة اكتنزت لأجله، وتحررت بلمسة من أنامله. كانت تلك الأنامل، قادرة على غوايتها، وفي كل لمسة تغرس في جلدها قنبلة، سرعان ما تذوب كسيلان هادئ لشموع.

فتح باطن يده، لا أثر فيها لزهرة النار، يد صافية، كأنها بُعثت من جديد وقد تطهرت من كل إثم، أو كأنه يستعملها للمرة الأولى، مرَّ بأنامله فوق جلدها، فاستطاب برودته وسرتْ في عروقه رجفة لذيذة، مسَّ جبينها بشفتيه، ثم لثم كل جزء بوجهها على حدة، أكان في حاجة إلى أن يفقدها في قاع كابوس كي يستيقظ داخله كل هذا

الحب؟

لن يسأل متى قررت العودة إليه أو متى، أو أين فقدها واستعادها، في الحلم أم الحقيقة؟ ربما لم تهجر الغرفة يومًا. كل ما يعرفه أنه سيعوضها عن كل خيبة أمل عاشتها معه وهي عالقة في حياكة شِرز. لم يسأل لمرة ما الذي كانت تحمله لصق قلبها كل ليلة وهي تسقط مثقلة في قاع النوم دونه ودون أن يفي بوعوده، حتى يفرغ من الركض الأبدي.

فتحت عينيها ببطء، ابتسمت له، تعلقت برقبته كطفلة، قالت:

«أحبك»، ثم بادلته قُبلة طويلة.

«استكملي نومكِ، سأجهز الفطور.. ثم أعود لأوقظكِ».

غادر الغرفة بخفة ونشاط، يسري بجسده شعور قوي بالحياة وفي جوفه جوع طازج لا عن شراهة أو حرمان أو تعب، بل جوع صاعد من جوف شاب لم يُشبع فضوله بعد في اكتشاف موائد العالم، شعور لم يختبره منذ أيام فتوته، لكن برأس أكثر حكمة، وقد صفت آماله ورغباته، صارت مُركّزة ومحددة في أن يتوقف بكليته عن الركض تحت سوط الشمس وأن يتنفس الهواء ويتذوق الفرح. هل بالموت الذي ذاقه في كابوسه قد لامس الحقيقة؟ هل الحياة حقًّا هي محض حلم والموت هو أن نستيقظ منه أم العكس؟ أم أن الحب بضوئه الضئيل هو المصباح الوحيد الممكن وسط عتمة حقد غامض؟

تناهت إلى أنفه رائحة شهية، لكنها أثارت القلق داخله، رائحة

المخبوزات الملائكية، ثم سمع صوت ابنتيه تضحكان بصخب مع رجل، أسرع خطاه ناهبًا الدرج إلى الطابق الأرضي.

كان سمير واقفًا بينهما في المطبخ مرتديًا إحدى بيجاماته، فوقها مريلة مطبخ تخص زوجته، وقفازَي فرن، وفوق رأسه قبعة شيف منفوخة، كلمسة بهرجة لن يفوتها على نفسه، ويعلم الله وحده من أين حصل عليها.

«ما أشهى الرائحة، لا بد أن تُعلم أمي الوصفة». قالت الابنة الكبرى لسمير.

«ليس قبل أن يدوخها السر»». قال ضاحكًا، ثم ناولها قضمة، فأطلقت شهقة استيطاب، وكذلك فعلت الابنة الصغرى.

«ما الذي تفعله هنا؟». قال الأعور.

«لقد دعوتني بعد احتفال أمس لأبيت ليلتي عندك، لقد تأخرنا ولم تكن بحال تسمح بالقيادة، وكريمة لا تُجيد القيادة، ألا تتذكر أي شيء؟».

ثم توجّه بالكلام إلى الابنتين ضاحكًا:

«لقد حذرته أنا وكريمة من الإفراط في الشراب».

قالت الصغرى:

«قطعًا كانت السهرة على حسابك».

«أعلم أن تصديق ذلك أمر مستحيل.. لكن هو مَن دفع بسخاء، ولم

أتوانَ عن انتهاز الفرصة».

قالت الكبرى:

«من الظلم ألا ننال حظّنا من هذا الكرم المفاجئ، لن تفوز بجائزة الدولة التقديرية في الآداب كل يوم».

«فلننتظر نوبل». علّقت أختها.

«مت يا حمار». ضحكوا جميعًا، حتى الأعور.

حضرت كريمة، كانت ترتدي ملابس بيت خفيفة لم تعتدْ أن تقابل بها الضيوف، قالت:

«أنا جوعانة».

«الشيف سمير في خدمة سموك».

جلسوا جميعًا إلى مائدة السفرة وهو على رأسها، كريمة عن يمينه، وسمير عن يساره، شرعوا في الأكل بشهية. ظلت كريمة تنقر بأصابعها على الطاولة في دندنة تكاد أن تمسك بإيقاع العالم من قرنَيْه، أما سمير فداعب ساقه بأصابع قدميه، لم يُرد أن يفسد ذلك الانسجام الذي لم يشعر به منذ زمن بعيد فصمت.

كان سمير يتصرف كواحد من العائلة، ربما لهذا لم تعتقد كريمة أنها في حاجة إلى ملابس أكثر رسمية في حضوره، كذلك بدا أن الابنتين لا تشعران بغرابة في وجوده.

عندما قام لرفع الصحون وغسلها كما اعتاد، تبعه سمير، همس

بالقرب من أذنه:

«ليلة لا تُنسى، لم نصدق أنا وكريمة أن جسدك في ذلك السن قادر على إسعاد روحين».

تركه غريق دهشته، ثم صعد إلى الطابق العلوي بأريحية، كأنه عاش عمره كله في البيت بينهم. لم يستقبله في منزله إلا مرات معدودات قبل سنوات طويلة في السهرات التي جهزها عقب عودته من الخليج لعشرات الأدباء كي يمنحوه مفاتيح الأبواب المغلقة، لكنه كان حريصًا على الدوام أن يرسم الحدود والمسافة بصرامة بينه وبين ضيوفه، ولم يستثنِ سمير لكونه أول مَن لان منهم لغوايته.

عاد بعد دقائق وقد ارتدى ملابسه. في أي غرفة تركها؟ سأل الأعور نفسه، ثم طلب أوبر، وعرض أن يوصل الابنتين في طريقه إلى النادي الذي لولا إصرار كريمة كأنها معركة حياة أو موت لما قَبِلَ أن يدفع اشتراكه.

«سأراك الليلة في قاعة التكريم، سأتأكد بنفسي من أن كل شيء جاهز». قَبَّله في فمه أمام كريمة والابنتين ثم غادر بصحبتهما، دون أن يبدو على أحد الارتباك أو الحرج سواه، كأنه شيء قد اعتادوا رؤيته، يتفهمونه كجزء طبيعي من حياته.

عندما صار مع كريمة بمفردهما، ظل ينظر إليها بريبة، منتظرا أن تنفجر بما حدث ليلة أمس غاضبة أو معتذرة، لكنها فهمت ما جال بخاطره، فقالت:

«لولا الخمر التي أفرطنا في شربها أثناء الاحتفال ربما لم أكن

لأقبل. كنت أعرف بالطبع ما بينك وبين سمير، وأعترف أني كنت أغار لكن ما إن فعلناها حتى أدركت أنه الشريك المثالي، القطعة الناقصة كي يتأجج بيننا الغرام من جديد، كما أن البنتين أحبَّتاه فعلا، وتتعاملان مع الأمر بنُضج، لن أمانع إذا دعوته للانتقال إلى هنا».

لم يشعر بشيء، لا دهشة ولا غضب، لا حزن ولا فرح، بل لفت رأسه سحابة صافية من سكون بارد، أتلك هي السعادة؟ ظل مُضيء راكد ينبعث من كوة فارغة في العقل؟ أذاك الملمس الرخامي الفج الذي يسري بأنامله هو ملمس الانسجام؟

«ما أدهشني كان الشباب الذي ارتد إلى جسدك، تناسق عضلات فريد، جلد مشدود، ظهر لا يقاوم، سُمرة مثالية وبدن تام كما كان في أيامنا الأولى، والأهم رغبة لا يحدها شيء، مفاجأة بحق، لكن في كل الأحوال أنا ممتنة، أشعر أني لا أرغب في شيء آخر من العالم، فلأعترف: يكفيني أن أكون زوجة الكاتب الكبير».

لا سعادة، بل حدس مُخيف بالخطر يستيقظ داخله، كريمة التي يعرفها حقًّا لن تلهيها ليلة حب مهما بلغت روعتها عن تحقيق ذاتها، أو أن تكتفي بالذوبان داخل وجوده. انسحب إلى غرفة مكتبه، مُغلقًا بابه.

على المكتب، كتالوج الشركة الصينية لمنتجات الرواية وخدمات ما بعد البيع، مع صورته على الغلاف، أسفل الصورة لوجو الشركة، هامستر يركض داخل كرة زرقاء وهو يهتف مبتسمًا: انضموا إلى المستقبل.

فر الكتالوج بيد مسعورة، حتى وجد صورته بين الكُتاب الخالدين، ونبذة عن رواياته الست، ورائعته السابعة التي ستصدر قريبًا «المشاء العظيم»، والتي ستضمن له مكانة أدبية رفيعة لم يسبقه إليها كاتب مُعاصر، في خلطة تذكر بأهم الكُتاب بالعالم، مشار إليه بالروائي الذي حاز في سن صغيرة جائزة الدولة التقديرية للآداب تكريمًا له على تقديمه قربانًا لا يصدق ساهم في رفعة فن الرواية العريق: حياته. مع إعلان يضعه ضمن أعلى الباقات سعرًا للروائيين المبتدئين الذين يرغبون في استنساخه.

لكن الروائي المقصود، صاحب أعلى الباقات سعرًا، المنتج الجديد الذي ستطرحه الشركة الصينية في الأسواق مع خصومات هائلة، والذي سيعلن عن تفاصيله ومميزاته يوم التكريم، لم يكن محمد الأعور، بل الروائي: فرج الكفراوي نفسه.

أما زال عالقًا داخل كابوسه، أم أن ذلك الوهم وحده هو الواقع عاريًا كدودة؟

ظل يدور كالمجنون بأرجاء الغرفة في حلقات متتابعة، علَّه يجد ثغرة يكسر بها دائرة الوهم التي تحاصره، فيجد منفذًا إلى الحقيقة.

بدأت رقبته تتلفت متشنجة حول نفسها كرقبة عصفور، توقف أمام مرآةٍ كثيرًا ما تدرَّب أمامها على طُرق بيع منتجاته، وضبط تعبيرات وجهه مستفيدا من خبراته القصيرة فوق خشبة المسرح عندما اشتهى أن يكون ممثلا كي يقلد زميلا له بالجامعة، تحسس رقبته، ليميز أثر خيط نحيل وباهت، كذلك الذي حاكته فاطمة على

جسد كريمة في الحلم.

انسحبت الأرض من تحت قدميه، فجلس على كرسي المكتب، كان قفل درجه الذي اعتاد إغلاقه بمفتاح لا يفارقه مكسورًا، يكاد يشعر بأثر يد اللص الذي انتهك القفل بعصبية وتعجل، فتح الدرج، أخرج الصندوق الصغير، لا شيء به سوى عَقْد نشر ومسدس وقلم. قرأ العقد..

كان يتنازل فيه كطرف ثانٍ عن رأسه إلى جسد هاني الديب، والذي تنازل بدوره عن جسده إلى رأس محمد الأعور، المملوكَيْن إلى الطرف الأول: الشركة الصينية المتحدة، التي عملت لثلاثة عقود على تأليفه كروائي، وتستعد الآن لإعادة إطلاقه كمنتج جديد يغزو الأسواق باسم: فرج الكفراوي. يحصل الطرف الثاني بموجب هذا العقد على رواية «المشاء العظيم»، وتكفيه للحصول على الخلود، تضمن الشركة طمس كل أثر للرواية الأصلية، «فاطمة العرافة»، وكذلك كل أثر للكاتب المنسي، الذي يولد عبر الأعور والديب من جديد، على أن تظل بنود هذا العقد سِرية.

تلك الروح وذلك الجسد، النسخة المنتحلة منهما هي مَن ضاجعت الزوجة والصديق وحظيت بالحب؟ هي مَن ستنال الجائزة الكبرى والرواية المُشتهاة والتكريم؟ مَن فيهما قدَّم القربان الذي لا يصدق لينال الكفراوي جسدًا شابًّا فوق رأس أكثر حكمة، هو أم هاني الديب؟

أجبرته يده على الإمساك بالقلم، أيتحكم الجسد في الرأس؟ أم

الشيطان الذي عقد معه صفقة خاسرة هو مَن يتحكم فيهما؟

كان مكان توقيعه خاليًا. ظلت اليد تحوم بالقوة فوق مكان الاسم، ثم أدرك أن ليس بإمكانها إجباره على التوقيع إلا بموافقته، لم يبلغ الشيطان تمام الهيمنة، لا يفصله عن ذلك إلا توقيع بسيط، لكن بأي اسم عليه أن يفعل؟ وما الذي يعوقه إن كان الرأس له بذكرياته الحقيقية والمنتحلة؟ ما الذي سيخسره إن كان المقابل هو السعادة والحب والانسجام؟ ربما الخاسر هو الكفراوي والديب لا هو! وأليس ذلك بالضبط هو ما اشتهاه من بداية طريقه؟! بل حلم أي كاتب خبرة السلف وطزاجة الشباب، ألا يحمل ذلك أيضًا شيئًا من رنين العدل، ويخفف من الذنب الذي أرَّق مضجعه بنسبة روايات الكفراوي المسروقة إلى نفسه؟! ست روايات من الشهرة مقابل روايته السابعة، حياته، الشيء الوحيد الأصيل الذي يملكه.

كل ما عليه أن يفعله ليحظى بكل شيء هو أن يقبل تغيير اسمه، وما فائدة الاسم؟

الاسم هو الفخ الذي ننصبه لأنفسنا كي نظن أن الخلود حق، من أجل أن يبقيه مشتعلا في الذاكرة ارتكب كل حماقة ممكنة، وكي يحميه من النسيان لم يتوانَ عن ربطه بالقدرة على الكي، بالعنف، بالجروح التي نشبتها أظافره في أجساد الآخرين وأرواحهم، لم يفرق في ذلك بين أحبائه وأعدائه، خلود قام على الأذى، الدم، مُشيد من ألف كذبة.

لكن ما الحقيقة سوى تراكمات صغيرة من الأكاذيب، حصون

وحوائط عالية من نسيج عنكبوت تصلَّبت كفولاذ سجن؛ لذا فالسبيل الوحيد للطمأنينة هو أن نرعى خوفًا أبديًّا، أن نحميه بأنفسنا من الانكشاف والتبدد. ألا يجد المرء عزاءه في مجموع أوهامه؟

وما الكذب سوى الطريقة الوحيدة التي امتلكها كي يخترق سياج الاحتمال الوحيد المفروض. عبره اتسعت المسافة وامتلك الأمل. سوء السمعة الملتصق بالكذب جاء من استعمال الجبناء الجائر له، يكذبون بألسنة مشنوقة بذنب الصدق، تأكلهم الحيرة وتفضحهم أعينهم عندما تزيغ عن المواجهة.

الشجعان فقط، سادة مصائرهم، هم مَن يحملونه إلى آفاق جديدة، يُعيدون اكتشاف جوهره، وينحتون به أصنامًا أخرى للحقيقة، ليعبدها الجبناء. يتقاتلون أسفل أقدامها الرخامية، يُقسمون إنها القول الأخير، الفصل، الصادق، الذي من أجله سينحرون الكذابين بأريحية ويقين المطمئن، وللمفارقة، حينها فقط يتمكن الجبناء من ارتداء أثواب الشجاعة، كمُلوك عُراة.

نحن الكذَبة الحق، صنعنا ما يوجد عليه العالم.

نفعلها بلسان لا يرتعش وعين ثابتة، ووجه ينطق بالحياة، كذبتنا هي الحقيقة الوحيدة، وإن لم تكن، فهي ما يرغب بها الناس، فهي المفضلة لديهم، لقد انتزعناها من مُحياهم المكشوف، من أعمق رغباتهم، شكَّلناها من ذعرهم ولهفتهم على ألا يلتهمهم حريق الحقيقة، لأننا ببساطة وعلى عكسهم، لا نخشى الحرائق.

كل ما يحتاجه أي شخص ليصير كواحد منا هو إبرام عقد جديد

مع الحياة، خالٍ من الصراخ، أكذوبة الحقيقة، الذنوب، يصيغ بنفسه كل بنوده، هو طرفه الأول والثاني، وشاهده المؤتمن، عقد بإمكانه دائمًا خرق بنوده.

كان ذلك هو صوت الكفراوي، شيطانه القديم الذي بعثَ بأحقاده كاملة من قبره، ناعمًا، مغويًا، طالعًا من أحشائه، مخترقًا تلافيف رأسه والخبايا المعتمة لضميره، مشتهى كما يليق بالسيد الجديد للغواية، الذي أعاد تأليف نفسه عبر جيلَيْن.

أجابه بصوت مُستسلم: «سأوقّع.. أمهلني القليل من الوقت، كل ما أطلبه هو أن ألقي نظرة أخيرة على رأسي قبل أن أسلمك إياه».

أرخت اليد قبضتها، تمكَّن من النهوض، وقف أمام المرآة متأملا رأسه.

تلفتت رقبته من جديد في تشنج عصفور، مؤمنًا أن كل ما يحتاجه هو القليل من رباطة الجأش، قبض عليها بكلتا يديه لينزعها، حاول الجسد الذي استحوذ عليه الشيطان أن يقاوم، لكنه كان قد انتبه متأخرًا للخدعة، أن الرأس كان يراوغ ملقيًا كذبته الأخيرة كطُعم. لكن ما باغت الجسد حقا هو أن المنتج لم يكن جاهزا بعد وأن الحياكة كانت ضعيفة، فلم تكن من بكرة غزل فاطمة، بل من تلك التي تنسج آلاف الهدايا والروايات، وتفسد سريعًا كي نشتري المزيد. انفصل الرأس ببساطة عن الجسد الذي تهاوى مكانه، وظل يرتجف مُثقلا بالوهن والطموح والأحلام المبددة، كأحجار خفية تغوص به إلى قاع بحر مُظلم، بينما تدحرج الرأس لثوانٍ قبل أن يستقر على

بعد أمتار قليلة منه.

أغمض الأعور عينيه، وقد احتضن الموت، بغواية الرغبة في نوم طويل ونهائي، لعلها كانت الشهوة الوحيدة الأصيلة للمتلاعب بالشهوات وثغرات النفوس. شعر بجسد هاني الديب يتوسل الشيء عينه، وقد أدرك أخيرًا عجزه عن تجاوز نفسه.

عمَّت الظلمة، قبل أن ينفتح الباب، انبلج عنه طيف خفيف أبيض، تسبقه رائحة شواء قوية وحلوة، يتبعه ضوء له زُرقة البحر. كاد أن يجرف الرأس أمام دفقة عنفوانه.

كانت فاطمة/حليمة، وقد تحلق حولها بناتها، ألف شبح لامرأة بألف ليلة، ينظرن إليه بأعين عطوفة، يُرددن الذِّكر: «يا لطيفًا في الأزل. الطف بنا فيما نزل». بصوت استمر في الخفوت عندما بدأت فاطمة في الغناء:

«اقترب يا حبيبي، دمك لي. أهبك دمًا طازجًا، فتعيش. منذ ألف عام أو يزيد، وأنا أحيك الضباب وأنتظرك.. أُقبِّل كل عام أو يزيد، ضفدعًا في ليلة القدر، يأتيني به خُدامي من الإنس والجن، فلا ينبت وجهك، ولا أرى جسدك يا أميري، في أي جزء تختبئ بالأجساد القبيحة المكرورة يا حبيبي. أقطع الجزء الملائم من الجسد، وأدفن الباقي تحت نخلة لا تموت. مِن دفس البلح في الدماء، نصنع عرق فاطنة، ابن الحياة والموت، يأتي من السماء ويصعد إلى الهاوية. أصنعه لأجلك، كي تأتي لتذوق حلاوته وتأنس.

لم أكُ أعرف اسمك. لا اسم لما لا وجود له. ولا اسم لك سيصير، حتى وأنا أغزل القطعة الأخيرة فيك بعد ألف عام أو يزيد، وأطيرها للقمر، مُنتحلا من ألف جسد أو يزيد، لتصير أنت تمامًا كما أردت، البدن التام، والسُّمرة المثالية، وظهر الرجل كما يجب عليه أن يكون. الاسم ليس اسمًا، لا اسم لحبيبي يقيده، فلا تنخدع، ولا تجعله قيدًا، فلا قيد على ما لا وجود له فلا تصنعه بما لا وجود له. تطير الآن، تتشبث في حياة ما، تبزغ من العدم بذكريات منتحلة، وتعود إليَّ، بعد اكتمال الجسد في عنفوانه، وفورة رحيقه.. اقترب يا حبيبي لتتنفس عبير ثديي الساخن.. خُض الحياة.. ودع الموت للموتى».

تقدمت كريمة، ومسَّدت رأسه برفق حتى زال منه كل فزع، أما فاطمة فقالت:

«لا أمل لك سوى التوقيع على العقد.. لقد رأى الكفراوي حقيقتك التي طالما أنكرتها، حقيقته التي لم يقبل بها فتعذب، رغم أنها نعمة متخفية في شكل خطيئة».

«إني محض لص».

«بل فارس حقيقي منذور لمهمة ثقيلة».

«تزوير الأستاذ».

«بل تزوير كل شيء، المهمة المقدسة التي رفضها الكفراوي».

«كانت الصفقة معك من البداية.. والعهد.. لم يكن الكفراوي

الشيطان، بل أنتِ يا حليمة».

«إن كنت تراني كذلك.. لكن ألا يبدو لك إنهاء حفل الأرانب وإراحة الأسلاف في قبورهم.. شيئا مقدسًا بما يكفي؟».

سألها بصوت واهن:

«أهذا كل ما كنت أحتاجه من البداية، الهزيمة؟».

أجابت:

«بل اليأس».

مدَّت له العقد، فوقَّعه بيدٍ غير مترددة، وبكامل إرادته.

شعر بروح الكفراوي المعذبة تستقر داخل جسده، وقد ارتاحت أخيرا من الأوهام والجنون، وقد أنقذه تلميذه من جحيم الفم الفاغر للنسيان.

حملت كريمة الرأس، ثبَّتته فوق جسد هاني الديب، أما فاطمة فبدأت غزلها. عندما انتهت، اخترقت أذنه أصوات زغاريد، تحلقت بنات فاطمة/حليمة حوله، لهن ذيول حوريات البحر وهي بينهن، بجسد كامل وبهيّ، يبرز كلؤلؤة ملكة، تمحو ببريقها وضوئها ما عداها، سيدة على كل شيء، اقتربت منه، تحسَّست الرأس والجسد، وافترَّ ثغرها عن ابتسامة، قائلة:

«الآن.. وجدت حبيبي، الذي انتظرته منذ ألف عام، مُنتحلا من ألف جسد أو يزيد».

أجابها بابتسامة واهنة. لقد أدرك ما عليه فعله، وقد شعر بالراحة مثل الكفراوي من عذابات الأوهام والجنون في الاستسلام لصفقة الشيطان، شيطان يحمل فكرة مقدسة لها هيئة الزفرة الغاضبة، كرياح عاصفة ستقلب كل شيء رأسًا على عقب.

***

لم يتوقع أحد كل هذا النجاح عندما أطلق محمد الأعور تطبيقه الإلكتروني الفريد: «المشاء العظيم»، الذي وضع فيه كل خبرة روحه في التزوير، الشيء الأصيل الوحيد الذي يملكه، مضافًا إليه طزاجة جسد تلميذه الشاب هاني الديب، وكل ما تعلَّمه من أستاذه فرج الكفراوي.

لم تكن فكرة التطبيق مُبتكَرة، لكن تجاربه كانت لتظل قيد الاختبار، لولا القربان الذي قدَّمه، والذي آمَن الأعور أنه بفضله استحق لقب مسيح الروائيين، رغم أنه حظي بفضله على لقب يهوذا، فلقد اعتبر الروائيون ما فعله خيانة لهذا الفن العريق.

شعار التطبيق كان في البداية مسروقًا من قصيدة لبودلير، **«ما يحتاجه هذا القلب العميق كهاوية/ هو النفس القادرة على الجريمة»**، لكنه غيَّره لاحقا لصالح شعار أكثر شعبية: «إذا وصفت مسدسًا في الغرفة، فعلى المسدس أن يُستعمل».

مُبتذل من كثرة استعماله، وجميل. لقد مسَّ الجميع، ولخَّص ما سعى لتحقيقه.

جعل الأعور لوجو التطبيق يرتدي نظارة ويركض بقدميه داخل

كرة زرقاء، منتجًا الكلمات عبر حركة قدميه، كي يلفت انتباه الجميع، وكي يُوحي بشيئين: التجدُّد والأبدية.

في البداية وضع بالتطبيق رواية مؤلَّفة من ست روايات منسية، تُسمى «المشاء العظيم» تحت يد مئات الرواة غير المحترفين، والذين صاروا خلال فترة قصيرة آلافًا. ليصنعوا منها ملايين النسخ غير المتطابقة التي تحمل أسماءهم، حتى يُنسى اسم كُتابها.

يحرر الآخرون نسخة أخرى من روايتك المحررة أصلا من رواية سابقة، فتتناسل كنُسخ بلا نهاية.

الروايات الست المنسية التي ألفت الرواية الكبرى، هي رواية الأعور التي سرقها من فرج الكفراوي، وكما فعل سابقًا لم يضع اسمه عليها، فلم يعد ذلك أمرًا هامًا، بعد أن أدرك عين ما أراده الكفراوي، وهدف كل شيء من البداية، أن يبلغ الخلود عبر سريان رواياته في ملايين الروايات المزورة، التطبيق هو الرواية التي طلب منه تأليفها ليبرّ التلميذ بعهده لأستاذه.

يستطيع مستخدمو التطبيق تغيير حبكة أي رواية إن أرادوا، أن يُغيروا النهايات والبدايات، أن يحذفوا الجُمَل التي أثارت مَللهم أو حفيظتهم، أو أن يضيفوا جُمَلهم الركيكة والقوية بأنفسهم، لا فارق. فالتطبيق يدعم نزعة الإنسان إلى المونولوج ويحترم الثرثرة.

بإمكان القارئ أن يستبدل بطل الرواية بنفسه أو بأي شخص آخر، أو أن يظهر كشخصية هامشية لا تقول شيئا ولا تفيد البناء الدرامي. كما يحق له أن يسود عشرات الصفحات التي تعيق السرد. بإمكانه

أيضًا أن يصنع رواية بلا كلمات. أحدهم ألَّف رواية كاملة دون أن يضع بها شيئا سوى مئات الصفحات من فواتير الكهرباء والغاز وشهادات ميلاده وزواجه ودرجاته الجامعية، وبطاقته الشخصية وجواز سفره الخالي من أي تأشيرة، وآخَر ألَّف رواية لا شيء فيها سوى الروشتات والتحاليل والأشعة التي توثق لتاريخه مع المرض.

توجَد أداة كي تصنع الوجه الذي تريده لشخوص الرواية، يمكنك أن تُضيف صورتك أو صور عائلتك أو أصدقائك، أو تستخدم أرشيفًا من ملايين الصور لعابرين، ثم تختار ملامح الشخصية كما أردتها. أو تترك الأمر للتطبيق كي يصنع لك وجهًا عشوائيًّا مُفتتًا في مئات الوجوه. اصنع أي جسد تريد، بنفس الطريقة، يمكن لشخصياتك الروائية أن ترتدي ما شئت من الملابس، بعضها يحمل ماركات دعائية، تكفل للموقع أن يُموّل نفسه، كذلك لا نغفل ماركات المشروبات الروحية التي تحتسيها شخصياتها، والأماكن التي ترتادها، الأثاث والمفروشات والآلات الجديدة والعقارات وموديلات السيارات والأماكن السياحية ومنتجات بلا حصر.

أغلب خدمات التطبيق مجانية، لكن إذا أردت التقدم أكثر في اللعبة، فعليك أن تدفع ما يعادل دولارًا لكل خطوة إضافية، يتم التبرع بعشرة سنتات منها لرابطة الروائيين المنسيين، الذين كلّفتهم الكتابة حياتهم بلا عائد. نجحت تلك الفكرة، فقد جعلت المستخدمين يشعرون أثناء اللعب بمتعة الإحسان.

نسخة روايتك المحررة من الروايات الأخرى، قد تحظى بمكان فريد ودائم، إن دفعت أكثر. كلما حظيت بانتشار وتقييم أكثر من

سواك، ضمنت مكانًا متميزًا مجانًا ولمدة تطول حسب اهتمام المستخدمين، قبل أن يأكل روايتك النسيان، ويندفعوا منجذبين إلى رواية جديدة.

مَن يستخدم التطبيق عليه أن يقبل أولا شروط سياسة الاستخدام، وأهمها موافقته على أنه «يكتب لقارئ على استعداد للتخلص منه فور اكتشاف ومضة جديدة في الأفق، أن يتجاوز الزمن بأن يتجاوزه الزمن. أن يصير نسيًا منسيًّا».

عرَّف التطبيق نفسه كالتالي: «لا نملك أي قواعد بديلة ضد وصفات الكتابة، بل نتبناها، نعرف أن الوصفات صالحة، وتنتج يوميًّا الطبيب والمهندس والعاطل وآلاف الروايات الممتازة والجيدة والتافهة».

يصنف كُتاب التطبيق إلى عدة فئات: المقامرون، الخونة، قناديل البحر، أبناء بودلير. أعلاهم قدرًا: الخونة. أكثرهم حظًّا: المقامرون. أكثرهم ولاء: أبناء بودلير. أجملهم: قناديل البحر.

فئة المقامرين: هي الفئة التي يدخل فيها الكُتاب رهانات عبثية، الرابح يضع اسمه على روايات الخاسر، الذي قد يرفع قيمة الرهان إلى ما هو أبعد: أولاده، شريك حياته، حياته نفسها فقد يُجبر الخاسر على أن يتحول إلى شخصية تنفذ ما يمليه عليه الراوي العليم، ليلهمه روايته الجديدة.

أبناء بودلير، هي الفئة التي ستُقسم على أنها لن تقرأ رواية في حياتها خارج التطبيق، ثمن خيانة ذلك هو الموت. هؤلاء هم الطائفة التي ترسخ الإيمان بفكرة التطبيق، ويميزها لون خاص وتحتقر باقي

الفئات الذين يبادلونهم الاحتقار بدورهم، كما أنهم لن يتورعوا عن القتل.

قناديل البحر، هم الأكثر جمالًا، روائي يضيء، يلسع، ثم يختفي. لا شيء أكثر، لا شيء أقل.

يمكنك أن تبني تحالفات من عدة روائيين، لبناء روايات لا تنتهي، صوتًا فوق صوت، وحدثًا فوق حدث، تسمى بروايات الأبدية، لا لخلودها، بل لعدم وصولها إلى نهاية، تسير وتستمر بلا هدف أو غرض سوى المتعة. ستحظى تلك الروايات بالجماهيرية، ولن يلعبها سوى عُتاة المستخدمين وأكثرهم خبرة؛ فئة الخونة. تطورت الفكرة إلى تطبيق مستقل يُسمى «لا أريد لهذه الرواية أن تنتهي».

يتيح لك تطبيق «المشاء العظيم» للرواية، أن ترى شخصياتك الروائية حية، تتحرك وتتنفس، قد تعزل شخصية مهيبة، وتعرضها لمواقف تتعرض لها في حياتك، قد توقفها في طابور طويل مزدحم تتنفس العرق والانتظار، ثم بضغطة زر، يفسح الطابور لشخصيتك طريقًا للعبور إلى أول الصف.

قد تضع في يد شخصيتك مسدسًا وتقتل أعداءك. قد تُضاجع ما اخترعته بنفسك، طالما تتذكر القاعدة: دولار واحد لكل خطوة، ستفعل ما شئت. بإمكانك أن تجعل أبطال روايتك المُنتحَلة لا يفعلون أي شيء على الإطلاق، يواجهك الواحد منهم في الشاشة وهو لا يفعل شيئًا سوى التثاؤب، الفساء، النوم، التغوط. «صوت الطرطرة» سيصبح عنوانًا لإحدى الروايات الناجحة على التطبيق،

حيث لا شيء سوى صوت طرطرة طويل وأبدي.

بإمكانك ألا تتدخل في الرواية، وتكتفي بأن تكون واحدًا من المعجبين. فهناك الكثير من الأنشطة المثيرة. كأن تحصل على صور تذكارية مع الشخصيات الحقيقية التي ألهمت الروائيين، كل شخصية روائية قد تتفتت كذرات في مئات الوجوه، تستطيع أن تقابلهم جميعًا في حفل كبير، قد تربح رحلة لرؤية الأماكن التي ألهمت الروائي، وأن تشاهد على الإنترنت متحفًا لإلهامه قد يضم كُتبًا، تغريدات، جرذانًا ميتة، دبابيس شعر، مَنِيًّا مُراقًا، وكل الأشياء التي يمكن أن نتقبل قداستها فور أن تصبح رواية.

في لعبة «دولار لكل خطوة»، يستقبلك رأس فاطمة العرافة إلى قسم: كيف تصنع رواية في عشرين دقيقة؟ تضغط على رأسها، فتهبك جملة افتتاحية عشوائية ومُتقنة، إن أعجبتك، تحتفظ بها أو تضغط مجددًا لتحصل على ارتجال جديد. ضغطة أخرى من أجل حبكة عشوائية، إن أعجبتك تحتفظ بها. ضغطة أخرى على رأس فاطمة، تحصل على ثلاث خيارات، ورابعها قد يكون اختيارًا عشوائيًّا لأحد مستخدمي التطبيق، تضغط على اختيار، فيظهر لك أربعة آخرون، حتى تكتمل الرواية.

إذا وصلت لطريق مسدود يفسد المسار، فبإمكانك أن تضغط على زر الأستاذ ليضبط كل شيء، ببناء مُحكَم مثالي، يعيدك خطوات محسوبة إلى الوراء، ويضيء لك مسارات الخيارات الخاطئة بالأحمر.

مبروك، مع قُبلة لعوب من رأس فاطمة.

رواية فاطمة، كانت دُرة الحكايات، صُنع منها: فاطمة، وفاطمة 1، وفاطمة 2، وفاطمة 3، حتى وصلت إلى مائة ألف نسخة لا يمكن تفريقها عن الأصل.

مَن يحصل على نقاط أعلى أو يدفع أكثر، قد يُمنح الفرصة لكتابة نُسَخه الخاصة من الكلاسيكيات الراسخة كالجبال.

عدد معين آخر من النقاط، يُتيح لك أن تختار صفات قارئك المفضل تمامًا كما يختار القارئ صفات كُتابه المفضلين، فالروائي على عكس الشائع هو مَن يختار قارئه. يمكنك أن تنفي اسمك، أن تكون محض وَهْم أو لقب.

يمكنك التنازل للآخرين عن اسمك كمؤلف للرواية من خلال مزادات علنية، هكذا يحصل المستخدمون على المال والمتعة. بإمكانك أن تهب روايتك كهدية لا تُرد وبلا مقابل وتضع عليها اسم قارئ أعجبك بدلا منك، أو قارئ لم يقرأك أصلا، لكن عليك أن تُثبت وجوده أولا.

حصل التطبيق على مؤمنين وموالين ومرتزقة، ولم ينجح عداء الروائيين إلا في الترويج له أكثر.

كتب المدوّنون من القراء عن الفارق بين استخدام منتجات تطبيق «المشاء العظيم» وبين قراءة وكتابة الروايات العادية المغلقة والنهائية كنصوص لا تُمس. تسارع النجاح ككرة ثلج، غُمس الجميع في المتعة. لقد صنع الأعور الهوس، وأصدر نسخًا بلغات عديدة من التطبيق ولاقى نجاحًا كاسحًا، عبر خطة التسويق نفسها التي وضعها

لترويج منتجات الشركة الصينية.

مع النجاح المدهش، استسلم الروائيون، المشاهير والمنسيون والموهوبون وأنصاف الموهوبين من أرجاء العالم، وقبلوا أن يدخلوا اللعبة، بعد أن قاوموا في البداية بضراوة.

أوحى له النجاح وانضمام الروائيين إلى أن يطلق صيحة جديدة: ماذا لو كان الروائي شخصية في رواية يؤلفها قارئ؟ كانت تلك ضربته الكبرى، التي أنتجت أكثر الروايات نجاحًا.

يجلس القارئ في غرفته المريحة، وعبر بث حي في التطبيق، يطلب من الروائي أن يتورط في الأفعال التي يخترعها أو ينتحلها القارئ، بينما تُدوّن الآلة ما يحدث.

يمتثل الروائي لكل ما يطلبه القارئ، حتى لأشد المصائر ساديّة وعبيثة وتفاهة. يصير الروائي هو فأر تجارب القارئ للأفعال التي يخشى خوضها بنفسه. يجرب القارئ أن يخلق منه شخصية صالحة لخلق التعاطف أو الشفقة أو الازدراء، ولو بالرقص عاريًا في ليلة مُمطرة، أن يُدخل رأسه في صفائح قمامة، أن يُخرج متاهاته السرية ودروبه المظلمة إلى العلن، مصادر معرفته، تناقضاته، أشياءه المخجلة، عاديته التي طالما أثارت دهشة القراء. خضع الروائيون لكل المصائر المقترحة، والتي تضمنت الجنون والموت بأمراض عبثية والانتحار.

وجد الروائيون في ذلك مُتعتهم، وتحرُّرهم من براثن شيء مهول وقاصم. مما أغراه بتطوير لعبة فرعية، لكنها ستكتسح عالم الألعاب،

أسماها: Kill The Novelist.

سبب نجاح اللعبة هو بساطتها، فقط مئات الرءوس لروائيين مشاهير أحياء وميتين، تتساقط أمامك وبسرعة، وكل ما عليك فعله هو أن تُفجر رءوسهم قبل أن يصلوا إلى رف المكتبة، بتكرار الأمر قد يبتلعهم الفم الفاغر للنسيان.

صار التطبيق هو موضة العالم ومتعته الأثيرة، لم يخلُ جهاز هاتف ذكي من تطبيقات «المشاء العظيم» وألعابه. أطلق التطبيق جائزة لأفضل رواية منتحلة، سُميت «جائزة المشاء العظيم للرواية». طوَّر التطبيق وألعابه أكثر وأكثر، لم يفقده التعقيد جاذبيته، حيث كل شيء صار لعبة حلوة.

الشهرة الحقيقية جاءت الأعور عندما طُرق بابه مرتين. في الأولى حصل على عرض برقم خيالي من جوجل لشراء التطبيق، قَبِلَه فورًا. والمرة الثانية عندما جاءه مرسال تكريم، من هيئة سمع عنها للمرة الأولى، تظهر مرة واحدة ثم يأكلها العدم، منحته وسامَ أعظم روائي في العالم، ختمًا يُمنح مرة واحدة في الزمان، نهائيًّا وإلى الأبد.

تم الأمر ببساطة، وبدون مراسم كبيرة، فقط حفل صغير في المنزل، أُذيع على الإنترنت. تلقَّى فيه أسئلة من الجماهير.

كان قد توقَّع السؤال التالي: لماذا أطلقت تطبيقًا كهذا رغم أن نتيجته كانت قتل فن الرواية؟ أجاب:

«لأن لا ولادة إلا عبرَ الموت».

كان يعرف أنه أرتكب خطأ لا يُغتفر ـ خطأ فنيًّا في الواقع ـ بالاستسلام لرغبة الجماهير في منحهم إجابة يشعرون من خلالها بالذكاء، وهم يثرثرون مع أقرانهم حول ما فهموه، معنى سهل يلفظ بعيدًا كل ما لا يُهضم من القراءة الأولى فيُتهم أو يُدان بالفذلكة والغباء إذا كان جديًّا أو عميقًا، وبالسطحية والتفاهة إن كان مضحكًا أو هزليًّا. إجابة تمنحهم اليقين وتخبرهم بما يعرفونه بالفعل، لا بما يمكن اكتشافه، لكن مَن يبالي، مهمته أكثر قداسة من خطأ كهذا، مهمة وكَّله بها الأسلاف الخالدون.

رغم ذلك أحبطت إجابته الجماهير، إلا أن قلة فقط هي مَن اعترفت بأنها رغبت في إجابة أسهل، خوفًا من الاتهام بقلة الذكاء، وهمهمت بالاعتراض إلا أن التصفيق انتشر كعدوى، وعادت آلة الدعاية التي طحنت تروسها الجميع للعمل، وترددت عبارة: «لأن لا ولادة إلا عبر الموت» في العقول كأصداء وظِلال وحناجر مئات الملايين حتى ظنوا أنها عبارتهم الأصيلة التي لم تختلط بنقيق الضفادع، حتى ابتُذل معناها، لكنهم رأوا في ضحالتها العُمق نفسه، فتبنوها.

سكرَ الأعور في نشوة الشهرة طويلا، قبل أن يشعر أن ثمة شيئًا ناقصًا في كل هذا، ربما ارتباط الفكرة الأصلية به، وربط البعض روايات الروائي الأول بكل رواية أنتجت على التطبيق، المسيح الذي علق تاج الشوك، وصلب رواياته على صليب الجماهير. ذلك يجرح كل شيء وينزع عنه سحره، يقتل الغواية ويُفسد المتعة على الجميع.

لكن ذات ليلة شربَ فيها من نبيذ فاطنة النادر، والذي ادخره للأوقات الصعبة وجدَ الحل صافيًا.

توجَّه أمام المرآة، ثبَّت رأسه بيده فوق جسده كتاجٍ من الشوك، فأبدًا لم تفلح حياكة فاطمة في أن تثبته فوق جسده.

تقول القاعدة الروائية الشهيرة: «إذا وصفتَ مسدسًا في الغرفة، فعلى المسدس أن يُستعمل».

صوَّب المسدس نحو رأسه، رأى شبح الكفراوي خلفه، همسَ بصوته الناعم الشيطاني في أذنه:

«هذا مُبتذَل».

ابتسم الأعور قائلا: «وجميل».

شكر خاص

أحمد وائل، عادل عصمت، عزت القمحاوي، عبد الستار البلشي.